المبحث الثاني: المصادر الأساسية للثقافة الذاتية

أولاً: مركزية القرآن في الثقافة الذاتية

انطلاقا مما تقدم يثار السؤال الآتي "ما مرتكزات الثقافة عند الأستاذ فتح الله؟"

يجيب الأستاذ نفسه عن هذا السؤال من خلال مقالة "المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي": "وهذه الأسس -باختصارٍ- هي الكتاب والسنة... وبالإضافة إلى هذين العمادين -وفي إطار مرجعيتهما- التفسيرُ والحديث وأصول التفسير وأصول الحديث والفقه وأصول الفقه... ونخص بالذكر الفقه وأصول الفقه فهما -من حيث إنهما ثمارُ مساعٍ حثيثة وكدحٍ مضنٍ، ومن حيث إنهما من غير مثيل أو شبيه لهما في التاريخ- مَنبعان لا ينضبان ومصدران قابلان للتوسع والثراء الرحيب بحيث إن الشعوب التي تمتلك هذين المصدرين تُعَدُّ مالكة لأهم الأشياء الحيوية. إن كل حضارة تَفخر بقيمٍ تخصها بالذات... فالفقهُ وأصول الفقه من أهم وأبرز قيم حضارتنا نحن. وأحسب أننا لو كنا نحتاج إلى أن نَصِف حضارتنا -باعتبار ماضينا- بصفة، لكان من الأنسب أن نصفها بـ"حضارةِ الفقه وأصول الفقه"... حضارة الفقه وأصول الفقه المنفتحة أبوابُها على

obeikandl.com

مصاريعها للفكر والحكمة والفلسفة"[١٤٢].

فالقرآن الكريم والسنة النبوية وما يتصل بهما من فقه وأصول فقه يعتبران المصدر الأساسي الموجه للميراث الثقافي بالنسبة للأستاذ، وهو إذ يبرز هذا المرتكز لا يقف بذلك عند حدود الخطاب بل هو يركز على جانب الحضور الفعلي لهذين المصدرين في الحياة من خلال بناء نماذج بشرية متحلية بثقافة تستمد مرجعيتها من سنة رسول الله ﷺ ومنهجه في الحياة ومنهجه في التفاعل مع الكون، ومن خلال الاسترشاد بالقرآن الكريم وما يتصل به من تفسير وفقه وأصول فقه.. وهو إذ ينبه إلى ذلك كله إنما ينبه إلى الأساس المتين الذي يكون خير عون للإنسان في مسيرة البناء والانبعاث من جديد والنهضة.. وهو كذلك إذ ينبه إلى ذلك يؤكد بأن كل منطلق لا ينطلق من خصوصيات ذاتية، فإن نتاجه ومخرجاته سلبية لا محالة، ولن يكون هناك انبعاث ولا نهضة، ولذلك وجب الارتكاز على هذه الخصوصيات. بمعنى أن الأستاذ فتح الله كولن يجعل القرآن الكريم والسنة النبوية وتوابعهما شرطين أساسيين للانبعاث الحضاري والنهضة والتقدم. ولا يقف هذا الرجوع إلى هذه الأصول عند مجرد اجترار ما قدمه السلف، بل لا بد للأجيال الحالية من أن تسجل حضورها.

لقد كانت البيئة التي أنتجت ما أنتجته من معطيات ثقافية ومن ميراث يعترف العدو قبل الصديق بقيمته وأهميته.. لقد كانت هذه البيئة بيئة حية معطاء وبيئة ولودا، بفعل ما وفرته المصادر الأساسية من أجواء مساعدة على الصلاح وعلى الإبداع. ولذلك فإن حضور هذه الأصول في حياة

[١٤٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٧٩-٨٠.

الأجيال الحالية، وعيشها كما كان يعيشها الأجداد، سيولد بيئة مساعدة على الانبعاث والنهضة وغير ذلك من أسباب النهوض، وسيقدم لهذه الخصوصيات إضافات كثيرة كما أضاف الأجداد بما أنتجوه من علوم ومعارف كانت مرشدا ومنارة تنير الطريق.. يقول: "يتحتم علينا -من أجل بناءِ فهمٍ ثقافي أمتن وأسلم وأقوم وأبقى لأمّتنا- أن لا نفدي قِيَمَ ماضينا وحاضرِنا ومستقبلنا بعضَها لبعض مع مراعاة الأولوية للمستقبل، وأن نوقر ونصون الديمومة والتوسع بنفس الدرجة.. والحقيقة أن الزمان الثقافي غير مرتبط بفكرة التواجد قبلُ أو بعدُ، على خلاف مفهوم الزمان المعروف لدينا. وأرى من الأنسب أن نسميه بـ"ما فوق الزمان". بل الأحرى أن ننظر إليه مستقلا عن الزمان ومتعاليا عنه. والواقع أن ديمومة الثقافة بذاتها منوطة باستقلالها. لكن من البدهي وجودُ إطار من المرجعيات تنظِّم بناءها الذاتي والمستقل تماما، وتُشكِّل كيفية علاقتها بالجهات المختلفة"[١٤٣].

قد يلتقي الأستاذ فتح الله كولن مع العديد من مفكري الإصلاح في قضية الارتكاز على القرآن الكريم وعلى السنة النبوية. فأغلب مفكري الإصلاح إن لم نقل كل مفكري الإصلاح الذين ينطلقون من رؤية إسلامية يجمعون على ضرورة الرجوع إلى القرآن والسنة، ولكنهم وهم ينظرون لذلك نسوا وضع خطة عمل لتفعيل ذلك، وهو الجانب الذي يميز الأستاذ فتح الله كولن.. فرؤيته الفكرية ومجهوده النظري لا ينفصل عن المستوى التطبيقي والحركي في مشروعه الإصلاحي بصفة عامة.

[١٤٣] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٧٩.

فما موقع القرآن الكريم في هذا الميراث الثقافي؟

وما موقع القرآن الكريم في التصور الإصلاحي بكامله؟

وما طبيعة نظرة الأستاذ فتح الله للقرآن الكريم؟

وما منهج تفعيل الوحي عنده؟

يقول عن القرآن والكريم وعن حيويته واستمرار نضارة خطابه، باعتباره وحيًا: "إن القرآن الكريم -سواء بالتفسيرات المروية عن رسول الله ﷺ أو التفسير والتأويل في ضوء قواعد اللغة العربية وأساليبها، أو أسباب النزول- لم يزل مصدرًا مهمًّا لثرائنا الفكري، حتى إن من ينظر إليه بالنظر السطحي فلا يخفى عليه كم هو مصدرُ ثراءٍ كبير.. والمعنى عينه جار على الحديث أيضًا، لكن الواجب أن تصان هذه العلوم بالعقول الوفية والمقتدِرة، وإلا فلا منجى ولا مفرّ لأمّتنا من حياة الشقاء في هذا الثراء إن دام ما يراد لهذين المصدرين النيرين الفياضَين من تكديرٍ لصفائهما أو إغفالٍ لوجودهما، نتيجةً للعداوة اللدود من الخصوم، والخذلانِ أو السكون من الأصدقاء"[١٤٤].

فالقرآن وما يحيط به من معارف وعلوم، هو أول مصدر للثراء الفكري المتصل بالذات، بل هو أساس كل شيء في حياة المؤمن.. فالقرآن كتاب مقدس أوحاه الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ليبلّغه للناس كافة، بما أنه الكتاب الذي وضع فيه الله تبارك وتعالى تفاصيل السير إليه، وتحقيق الغاية من خلق الإنسان ونزوله إلى الأرض. ولذلك فإن القرآن الكريم الذي بلّغه الرسول ﷺ لكل من كانوا محيطين به كان أداة تفتحت بها بصائر

[١٤٤] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٨١-٨٢.

رجال حول الرسول ﷺ وتعمق به شعورهم وتوسع به إدراكهم الفكري، حينما ربطهم بالآفاق واسعة، بعد انتشالهم من ضيق رؤية لا تتجاوز حدود اليومي إلى آفاق الوجود والكون الواسعين.. لقد أخذ بألبابهم منذ الوهلة الأولى نظرا لمنطقه الدقيق وقدرته على مخاطبتهم بأسلوب عهدوا أنفسهم أقدر الناس عليه، لكنهم مع ذلك عجزوا كل العجز عن الإتيان بمثله، وأدركوا مع كل ذلك بأنهم بالانفتاح على القرآن وتشريع أبواب كل جوارحهم سينتقلون بفضل ما أودعه الله في هذا الكتاب من أسرار إلى مقامات أخرى ترشد العالم إلى كل أنواع الفضل والخير. لقد أدركوا -وهم متحلقون حول المبلغ الأول- لهذا الخير العظيم بأن "الاستفادة من خيره منوطة بمقدار ما تتسع له العقول المنصفة"[١٤٥].

بهذا الإدراك -أي بإدراك كون القرآن الكريم وحيا وخطابا إلهيا يتوجه به الله تبارك وتعالى إلى خلقه من أجل مساعدتهم على معرفته والاسترشاد بمنهجه في إعمار الأرض وبناء الحضارة- نجح الرسول ﷺ المؤيد بمصدر الوحي في صنع نماذج بشرية لم يسبق لها مثيل، لأن "درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوّه النوراني كانت معجزة قائمة بذاتها لا تحتاج معها إلى ذكر أي نوع آخر من المعجزات، ولا يمكن العثور على أي مثيل لهم في مستواهم من ناحية التدين والتفكير وأفق الفكر والخلق ومعرفة أسرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلا من الصحابة آنذاك لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة"[١٤٦].

---

[١٤٥] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٨٢.

[١٤٦] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن (ترجمة: أورخان محمد علي)، دار النيل، ط:١،

فانطلقوا نحو الآفاق مبلغين كلمة التوحيد إلى كل مكان، مرشدهم في كل ذلك هو "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، والخطاب القرآني.. لقد انطلقت هذه النماذج البشرية نحو الآفاق لا يحركها سوى شيء واحد هو "إعلاء كمة التوحيد"، ولم يكن في حسابها الاستقرار من أجل بناء الحضارة أو إدراك منفعة مادية ودنيوية، بل كان غرضهم الأول هو أن ترفرف كلمة التوحيد في كل مكان، وتبليغ الوحي إلى كل بقعةٍ وَصلوا إليها، لكن العمران والحضارة وما يترتب على ذلك من استقرار وإنتاج معرفي وغيره، كان في الأصل منحة إلهية وجائزة منحها الله تبارك وتعالى لهذه النماذج البشرية. واستمر الأمر على هذه الحال قرونا عديدة حولت فيه هذه الحضارة أمكنة قوتها من زمن إلى آخر ومن قطر إلى آخر، إلى أن تغافل الناس عن الهدف الأسمى وهو نشر التوحيد وجعل ذلك موجها أساسيا في الحياة، فابتلي الناس بما ابتلوا به من ضعف ومذلة وتراجع في القيم والأخلاق.

ومن هنا فإن فتح الله عندما يستحضر القرآن باعتباره مصدرا أساسيا من مصادر ثقافتنا كما يقول، يستحضره باعتباره وحيًا ما يزال يتنزل باستمرار إلى أن تقوم الساعة. وهذا هو عمق ما يقصده الأستاذ فتح الله بأن الخطاب الإلهي أو البيان الإلهي -الذي يعبر عنه الخطاب القرآني- هو فوق الزمان والمكان، وليس مجرد مصحف يتبرّك به ويحترم جانبه الخطي، ويعتنى بجوانب الزخرفة فيه.. فالأستاذ فتح الله كولن عندما يطرح القرآن الكريم بهذا البعد، يطرحه بروح مطلعة على تاريخ الحضارة

إسطنبول ٢٠٠٤م، ص:٢١.

الإنسانية بصفة عامة، وتاريخ الحضارة الإسلامية بصفة خاصة، يعلم يقينا أن الحضارة الإسلامية هي إسلامية بمقدار التصاقها بالوحي وروحه. فإذا هي ابتعدت عن هذه الروح ضاع منها مشعل الحضارة، والتجأت إلى هامش التاريخ وصارت تابعا، والأصل أن تكون رائدة. بعبارة أخرى إن الأستاذ فتح الله ينظر إلى عمق التمثيل لقيم الوحي، فكلّما مُثِّلت قيمُ الوحي تمثيلا حقيقيا وسليما وعميقا كلما تحقق الشهود الحضاري، يقول: "يمر العالم الإسلامي كله -في عصره القريب الأخير- بأشد أزمة واجهَته في تاريخه، من حيث الاعتقاد والأخلاق والنمط الفكري والمعارف والصناعة والعادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاجتماعية. لقد نجح المسلمون في تأسيس أكمل إدارة، تعجز عنها مدارك التصور الإنساني، لمّا كانوا زمنًا أشد أهل الأديان تمسكًا بالدين، وأقوى الناس التزامًا بالأخلاق، وأسلمهم أعرافًا وتقاليد، وأجدرهم بقيادة الدنيا بسعة أفقهم السياسي والاجتماعي ونُظُمهم الفكرية. ذلك، بمعايشتهم للدين من غير خلل، وبكمال أخلاقهم، وعقلهم العلمي، وسبقهم الناس في كل عصر. واستطاعوا أن يمدوا سلطة إدارتهم - في ظل الأعمدة الثلاثة: الإلهام والعقل والتجربة- من جبال "بِيرِينَة"[١٤٧] إلى المحيط الهندي، ومن "قَازَان" إلى "الصومال"، ومن وبواتييه إلى سدّ الصين... وأحيوا الشعوب التي في عهدتهم في هذه المساحة الواسعة، بأنظمة متخيلة في المثاليات، حتى جعلوا الدنيا بُعدًا من أبعاد الجنة، وذلك في زمن كانت الدنيا تمر

[١٤٧] **بيرينة**: سلسلة جبال بين فرنسا وإسبانيا. **وقازان**: عاصمة جمهورية تاتارستان ذات الحكم المحلي في روسيا، والمدينة على نهر الفولغا. **وبواتييه** مدينة في فرنسا اشتهرت بمعركة بلاط الشهداء.

بأحلك العصور ظلمة"[١٤٨].

لقد كان القرآن باعتباره وحيا يتنزل على الناس فيبعث فيهم الحياة والحيوية والنشاط، لكنه عندما سُحب من مقامه العالي الذي يشرف منه على كل شيء، انهار البنيان وانهدت الصوامع. ولذلك فأصحاب الأحكام المسبقة والمنحرفون فكريا، والأرواح الأسيرة المكبلة، لن تستطيع الإحاطة بأسراره. فوجب تحرير الفكر من الأحكام المسبقة، ووجب انطلاق الروح من عقالها لكي تدرك معاني هذا القرآن الكريم، لأنه "أبدًا كتابٌ ذروةٌ في العلاء يتعدى آفاق البشر، وبيانٌ لا مثيل له بتنوع تفسيراته وتأويلاته بِطول موجات مختلفة، وذلك إنّما ينجلي لمن يفتح صدره له بإخلاص وصدق. إنه إكرام إلهي مهم للإنسان، والتعرفُ عليه ثم اللجوءُ إليه في كل مسألةٍ حظٌّ فوق الحظوظ وجَدٌّ فوق الجدود.. لكن -يا ترى- كم شخصا هو على دراية بهذه الحظوة؟! والحق أنْ لا حلَّ لمعضلة بشرية من غير اللجوء إلى ضيائه، وأنْ لا سعادةَ باقيةً يَحظى بها الإنسان من غير البناء على أسسِ شلَّالِ بيانه الدفاق"[١٤٩].

إن الأستاذ فتح الله يقدم الدليل بعد الدليل ملحا على أن كتابا مقدسا ظل محافظا على قوة خطابه وعلى نضارة معانيه وعلى حيوية بيانه على مر الزمن، لا يمكن إلا أن يكون أهم مصدر لثقافتنا. فما حقيقة هذا الكتاب، وما طبيعة نظرة الأستاذ للقرآن الكريم؟

تحدث الأستاذ عن القرآن الكريم في الكثير من المواضع، حتى لا

---

[١٤٨] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن (ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو)، دار النيل، ط:٢، القاهرة ٢٠٠٦م، ص:١٠.

[١٤٩] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٨٣.

يكاد كتاب من كتبه لا يُذكَر فيه مصطلح القرآن أو يشار فيه إلى معانيه. ويرجع ذلك إلى مقام القرآن الكريم في فكر الأستاذ فتح الله، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي يبني مجموع مشروعه الحضاري على القرآن الكريم وعلى السنة النبوية. فالقرآن حاضر في مختلف مراحل مشروع "الخدمة"، إذ هو المصباح الذي استنارت به الخدمة في حركتها، وهو المصباح الذي أنار للأستاذ فتح الله السبيل للإجابة عن الأسئلة المحرجة في مسيرة حياته الحافلة، يقول: "القرآن هو قمة الفكر المتين والصحيح، وأساس التعبير الدقيق، وقاعدة للتعبير المنطقي. وكما كان هذا الفرقان العظيم سيد الكتب السماوية وغير السماوية كان المخاطب الأول له سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ. الكتب السابقة جاءت لكي تضع إشارات على طريقه وأعلامه، أما الكتب التي جاءت بعده فلكي تقوم بشرحه ووضع الهوامش والحواشي، كل حسب خريطة روحه وغنى ذلك الروح"[١٥٠].

ويقول في مكان آخر معمقا هذه النظرة: "بل إن العصور المظلمة التي جال فيها ظلُّه أصبحت عصورا ذهبية. أما العصور التي تعرفت به عن قرب وعاشته فقد تحولت إلى ما يشبه الجنة. من وهب نفسه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل ما في الكون من أحياء وجماد أليفا عنده.. بل هو معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمة والأمكنة، وتلبي جميع المطالب الإنسانية بدءً من العقائد وانتهاء بأصغر الآداب الاجتماعية، وهو بعمقه يستطيع حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع الأشياء"[١٥١].

القرآن الكريم عند الأستاذ فتح الله مصدرا مطلقًا لا ينضب من

[١٥٠] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٦.

[١٥١] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٨-١٩.

المعلومات والحلول لمشاكل العالم. فقد وُهبت للقرآن في تصور فتح الله نعمة الإرشاد إلى طريق سعادة الدارين، بل هو مفتاح السعادة الذي يستطيع حل كل الألغاز في كل موضع في هذا العالم.. فبفضله يستطيع العالم الخروج من دائرة الحيرة والتّيه، والوصول إلى بناء الانسجام بين الأفكار والمشاهد، وبين الفكر والشهود. فالقرآن الكريم باعتباره كتابا مقدّسا وباعتباره وحيا، جاء لنجدة الإنسانية"[١٥٢]. إنه هو مفتاح كل المجالات المرتبطة بحياة الإنسان. يقول موجها خطابه إلى القرآن الكريم: "كيف سيكون حالنا إن لم تهطل كالغيث، ولم تهدر كالصاعقة، ولم تسحق سحق الصاعقة؟! وكيف ستكون حال الإنسانية؟! وكيف تستفيق هذه الأمة وتنهض؟! وكيف تخطو المدارس إلى الأمام؟! وكيف تتنور المعابد؟! وأين سيجد القلب والروح والعقل ضالتهم؟! وأي شيء يستطيع أن يكون بلسما لهذه الأرواح البائسة والقلوب المكلومة وشفاء لها؟! وكيف تستطيع هذه الأرواح المشلولة أن تبسط أجنحتها وتطير؟! وكيف يستطيع العقل فتح الطرق المسدودة أمامه فيرشد الفكر إلى طريق الأبدية؟!"[١٥٣].

ومن يحلل رؤية الأستاذ فتح الله بخصوص القرآن الكريم سيلاحظ بأنها تلتقي إلى حد بعيد مع رؤية الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، لكن أفكار فتح الله تتميز بروحها الحركية المتصلة بمشروع "حركة الخدمة" التي بدأها فتح الله قبل خمسين سنة خلت، بل إن مشروع فتح هو بوجه من الوجوه الصورة التي كان النورسي رحمه الله يحلم بتحققها

[١٥٢] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٥٩.

[١٥٣] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦١-٦٢.

في الواقع. وعند فتح الله عقيدة ثابتة أن حقائق القرآن الكريم ستقول كلمتها في المستقبل، وهو مقتنع بأن العصر الحالي هو عصر آخذ في التوجه إلى القرآن الكريم إذ يقول: "هناك العديد من المفكرين المعاصرين الذين يرون بأن العصر القادم سيكون عصر القرآن. والحقيقة أننا إن دققنا قليلاً لرأينا أن عصرنا الحالي بدأ يتجه للقرآن بسرعة أكبر مما كنا نتوقع أو نتصور. أجل.. حتى أصحاب أكثر النظرات بلادة وسطحية يستطيعون حدس كيف أن القرآن مرتبط بالكون ومتداخل معه، وكيف أن جميع بياناته حول الوجود صائبة، فلا يملكون أنفسهم من الإعجاب بقوة تأثيرها ونورانية عالمها"[١٥٤].

فإذا كان القرآن قد غير وجه العالم منذ أربعة عشر قرنا خلت، فإن فتح الله يعتقد بأن القرآن سيقول كلمته في القرون الحالية وفي المستقبل، وهو على يقين بأن القرْن الواحد والعشرين سيكون عصر القرآن، انسجاما مع رؤية مركزية في مشروع فتح الله كولن الإصلاحي، هي طرد اليأس واستحضار الأمل في المستقبل، فالقرآن سيحمل الحلول لكل مشاكل العالم، وعلى المسلم أن يكون واثقا في ذاته وفي القيم التي يمثلها، وأن يؤمن بحقائق القرآن وقدرتها على أن تكون بلسما لمشاكل العالم الروحية والواقعية، وشرط ذلك أن تتمثل الأجيال الحالية القرآن كما تمثله المسلمون الأوائل، يقول: "ولو تصرف مسلمو اليوم في موضوع القرآن بصفاء المسلمين الأوائل -علما أن هناك حركة ملحوظة في هذا الاتجاه حاليا- لاحتلّوا مكانة مرموقة في التوازن الدولي الحالي في

[١٥٤] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦٣.

وقت قصير، ولتخلصوا من تقليد الآخرين والسير وراءهم، ولما وجدوا السلوان في ودْيان التقليد الأعمى. إن قيام الطلاب الأوائل للقرآن بتلك الحملة الإيمانية والأخلاقية التي أدهشت العالم آنذاك يجب أن يدفع إنساننا المعاصر إلى تناول تلك الحملة بالدراسة والتدقيق بكل حرص. أجل.. إن ظاهرة قيام بضعة آلاف من الصحابة -بعد ظهور الإسلام بين جبال مكة الوعرة- بحملة وبانقلاب كبير أضاءوا به أرجاء الأرض، حادثةٌ متميزة وخارقة للعادة يجب تدقيقها وتقييمها، وهو منبع ثرّ غنيّ يرجع له المؤمنون على الدوام"[١٥٥].

ما يضفي المشروعية على ما يذهب إليه فتح الله هو ما يمثله القرآن، إذ هو معين لا ينضب من الحلول، مع خاصية الصدق والإخلاص الذي يميز خطابه.. فكما أنه لم يخدع من تفاعل معه منذ قرون بعيدة، فلن يخدع من يتفاعل معه في العصور الحالية ومن سيتفاعل معه في العصور المقبلة. وهذا أمر يقيني وعقدي بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن، فهو متأكد بأن الخطاب القرآني كان محركا للفاعلية الإنسانية في عصور السعادة، فإنه يقينا يستطيع تركيز الحركية والفعل في كل زمن وفي مكان. ونظرا لأن رؤية فتح الله تلتقي مع رؤية النورسي رحمه الله فهو يرى ضرورة الاتجاه نحو العلم من أجل معرفة الظواهر الكونية وفهمها، انطلاقا من كون الوجود قرآنا شهوديا يشهد بعظمة الخالق، ويشهد بصدقية الخطاب القرآني. فالقرآن الكريم باعتباره كتابا لحقائق كونية وكتابا يرشد ذوي الألباب إلى تدبر عظمة الخالق، فإن العلم السليم سيتناسق كل التناسق

[١٥٥] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦٧.

مع القرآن المكتوب الذي يدعو الناس بشتى السبل إلى العلم وإلى البحث العلمي، ويدعو إلى التأمل في كتاب الكون، بل ويدعو إلى نظام للتفكير خاص في فهم أسرار الوجود.. يقول في بيان هذه الحقيقة: "لذا نستطيع أن نقول بأن القرآن كما لم يقم بالأمس بخداع الذين آمنوا به واتبعوه ولم يحيرهم، كذلك لن يخدع الذين سيتوجهون إلى جوّه النوراني ويؤمنون به بعد اليوم، ولن يخيب آمالهم. لأننا نؤمن بأن العقول عندما تضاء بنور العلوم، والقلوب تتنوّر بمعرفة الحقّ، وعندما يوضع الوجود تحت عدسة العلم والحكمة للتدقيق والدراسة، سيكون كل حكم صادر باسم العلم موافقًا لروح القرآن ومتلائمًا معه"[١٥٦].

والأهم من ذلك هو أن القرآن الكريم يعلم الإنسان حقيقة ماهيته، ويعلمه الحق والحكمة، ويعرّفه بذات الله وصفاته وبأسمائه الحسنى[١٥٧] التي تجلى بها على الوجود -كما يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي-، بل إن القرآن -كما يبين فتح الله- "هو الكتاب الوحيد الذي يعلّم الإنسان معنى الإنسان وماهيته والحق والحكمة وذات الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى، وذلك بأدقّ ميزان. وليس هناك كتاب آخر يماثله في هذا الميدان أبدًا. ولو طالعت حكم الأصفياء والأولياء وفلسفة الفلاسفة الباحثين عن الحق لعرفتَ ذلك بنفسك"[١٥٨].

---

[١٥٦] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦٨.

[١٥٧] انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، (ترجمة: أورخان محمد علي)، دار النيل، ط:٥، القاهرة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص:١٤٢.

[١٥٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١٤٢.

ثانيًا: أهمية السنة ودورها في رؤية فتح الله كولن

الأستاذ فتح الله كولن يعتقد اعتقادا راسخا أن فهم أبعاد القرآن الكريم وإدراك مختلف مستوياته الدلالية والتداولية، والوقوف على مختلف أبعاده التي هي فوق الزمان، المفسرة بصورة دقيقة لحقيقة الإنسان وأبعاد الكون والوجود، وحقيقة الله، قضية ملحة وحتمية. ولكي يكون استيعابه لذلك كله وفق أساس متين ينبغي الاقتراب والدخول إلى عالم من وهبه الله صلاحية تفسيره وبيانه للناس بتطبيقه وتفعيله وتلقين دقائقه الروحانية على الوجه الأمثل، لتتحدد بذلك أهمية السنة النبوية وأهمية الرسول ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء والرسل، وباعتباره الصورة النموذجية للإنسان الكامل، والنموذج المثالي للإنسان الذي يستحق أحقية العودة إلى الفردوس المفقود.

ومن هنا يبرز ثاني أهم مرتكز في مفهوم الثقافة عند الأستاذ فتح الله وهو "السنة النبوية" التي تحتل مكانة مهمة جدا في رؤية الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحية، نظرا لأنها -كما يرى الأستاذ فتح الله- الوجه الآخر للقرآن الكريم، والصورة المطبقة لحقيقة القرآن الكريم.. فقد كان الرسول ﷺ قرآنا يمشي، فكما أن القرآن المنظور تفصيل للقرآن المكتوب، وكما أن القرآن المكتوب ترميز للقرآن المنظور، فإن السيرة النبوية الشريفة هي القرآن المطبق، ولذلك يستحيل الاستغناء عن السنة والسيرة النبوية في استيعاب أبعاد القرآن الكريم الدلالية والتداولية.

إن السنة النبوية وسيرة الرسول ﷺ هي المصدر الثاني للثقافة الذاتية، وعناية الأستاذ فتح الله كولن بالسنة النبوية والسيرة تكتسب مشروعيتها من النصوص الشرعية التي تفرض التمسك بهذا المصدر. ولذلك جعل

من الانتساب إلى الإسلام مرهونا بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ومرهونا بضرورة اتباع سنّته. ومظاهر عناية فتح الله كولن بهذا المصدر كثيرة لا تقف عن حد الدعوة إلى ضرورة الاهتمام بالسنة والسيرة، ولا تقف عند المظاهر الاحتفالية كما هو حال العديد من الدعوات في هذا الباب، بل الملاحظ هو تجاوزه لهذه المراحل إلى الأهم في الموضوع وهو الحرص على تنزيل السنة بدءا منه هو.. ففتح الله كولن من بين أكثر الدعاة ومفكري الإصلاح في الوقت الراهن تمسكا بالسيرة النبوية، فهو يعيش السنة ويحيى بها، بعد أن اختط لنفسه منهج حياة متصلة بالسيرة النبوية، وألزم نفسه به منذ عقود خلت.. وأما المنهج التربوي الذي اتبعه في بناء النماذج البشرية التي تؤثث مؤسسة الخدمة فمنهج نبوي مستمد من القرآن الكريم ومن السيرة النبوية، ومرد ذلك هو عقيدة الأستاذ الراسخة في هذا الباب وهي أن المنهج الذي نجح الرسول ﷺ من خلاله في بناء رعيل الصحابة الكرام، سينجح يقينا في بناء "الإنسان الجديد" أو "جيل القرن الواحد والعشرين السعيد".. وفي هذا الإطار تأتي عناية الأستاذ فتح الله كولن بسيرة الصحابة الكرام، باعتبارهم نماذج بشرية تربّت في مدرسة النبوة وتلقّت أنوارها من الرسول ﷺ، من منطلق أن الرسول ﷺ كان يربّيهم إما بتلقّيهم المباشر منه، أو من خلال ما كان يقذف فيهم منه من أنوار تصيب الذين حوله فتطبعهم بطوابع خاصة، وترتقي بهم إلى المقامات النورانية العالية، وتطبع أرواحهم بالسموّ والارتقاء. ولأهمية هذا الجانب في مشروع الأستاذ الإصلاحي فقد أولاه عناية خاصة.. ويمكن تقسيم هذه العناية إلى ثلاثة جوانب:

- **الجانب الأول** ذاتي مرتبط بطبيعة شخصية الأستاذ فتح الله، إذ

جعل من السنة النبوية منهجا شخصيا يتمثل في الاجتهاد في اتباع جميع الجوانب المتعلقة بالسيرة النبوية من خلال اتخاذ شخصية الرسول ﷺ قدوة يقتدي بها في جميع تفاصيل حياته. والظاهر -من خلال ما يرويه تلامذته عنه- أنه حريص على تطبيق السنة النبوية حرصا لا مثيل له، وليس هذا غريبا على مربّ عاش حياته كلها وقلبه متشبث بعصر الصحابة أو بما يطلق هو عليه "عصر السعادة".. فرجل حريص على أن يتخذ تلاميذه الصحابة الكرام قدوة لهم، وأن تكون السيرة النبوية وسيرة الصحابة الكرام منهجا يحرك كل فعل وسلوك... وقد نجح في هذه المهمّة التي تتجلى في العديد من النماذج الإنسانية الذين انطلقوا إلى كل مناطق العالم ينشرون عبق قيم السيرة النبوية وأريجها، وقيم الخير والمحبة بسلوكهم وتصرفهم، ومبشرين بعهد جديد ينتظر الإنسانية.. رجل هذه صفاته لا يمكن إلا أن يكون رجلا متعلقا بالسنة حريصا على تطبيقها.

• **الجانب الثاني** في مظاهر الاهتمام هو الجانب التطبيقي للسنة والسيرة النبوية.. فاهتمام الأستاذ بصورة خاصة، والخدمة بصفة عامة بهذا الجانب يتجلى على الخصوص في العمل على تنزيل مبادئ السنة في الحياة الواقعية، لأن السنة ليست مجرد مظهر احتفالي في رؤية الخدمة، بل هي منهج حياة، لأن عددا كبيرا من المنخرطين في "الخدمة" قد لا يُقنعون المتلقي في تحديد ماهية السنة وتعريفها، لكن عندما تعايشهم عن قرب تلمس في تصرفاتهم وأقوالهم مظاهر من السنة وسيرة الرسول ﷺ وسيرة الصحابة الكرام ﷺ.

• **الجانب الثالث** وهو الجانب المتصل بالتأليف.. فالأستاذ اهتم بالسيرة من خلال تدشينه لسلسلة من المحاضرات والخطب حول السنة

والسيرة النبوية، وهي الخطب التي صارت أصلا لكتاب هو اليوم من أهم كتب السيرة في العصر الحديث، وهو "كتاب النور الخالد" الذي يعد رؤية حركية للسيرة النبوية الشريفة. إن السنة مصدر أساسي للثقافة الذاتية، ولذلك فهي تحتل أهمية كبيرة في المشروع الإصلاحي للخدمة، لأن الارتباط بها هو ارتباط بالمظهر الروحي والحركي والسلوكي للإسلام، يقول الأستاذ فتح الله كولن: "نعم، السنة -سواء بفضل سعة مساحتها في التشريع أو بمرونتها القابلة لتفسيرات متنوعةٍ- لا زالت مصدرًا مباركا لا نجد له نظيرًا في العطاء في أي دين آخر أو أمة أخرى.. فهو المصدر في التفسير أو الفقه أو المسائل الاعتقادية أو الأخلاق أو الزهد والتقوى أو الإخلاص"[١٥٩].

فالسنة عند الأستاذ فتح الله ذات أهمية بالغة ولا يمكن الاستغناء عنها في رسم معالم المجتمع المسلم، بل وحتى المجتمع الإنساني.. فالسنة هي المصدر الثاني للتشريع، وقد تمكن علماء الأمة من المحافظة عليها بوضع الضوابط الصارمة التي مكنتهم من تصفيتها من الشوائب والتحريف والكذب على الرسول ﷺ. ولذلك فإن صفاء هذا المصدر لا يشك فيه إلا جاحد ومن في عقله نقص أو انحصار رؤية، يقول: "كان رسول الله ﷺ يرى إطاعته واتباع سنته جزءً من الدين، ويريد من الشاهد تبليغ الغائب وانتقال سنته إلى الأجيال القادمة، ويوصي أصحابه بالرفق بالذين يأتون من أماكن بعيدة بقصد سماع الأحاديث، ويشجع على فهم أحاديثه جيدًا، لذا نرى أحيانًا يكرر كلامه ليساعدهم على فهم أحاديثه وحفظها"[١٦٠].

---

[١٥٩] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٨٧.

[١٦٠] النور الخالد، محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن (ترجمة: أورخان محمد علي)، دار

وأما **الأمر الثاني** الذي يجعل للسنة كل هذه الأهمية، فهو كونها تمثل كل أفعال وأقوال وتصرفات وتدبيرات الرسول ﷺ، وهذا هو عمق ما أدركه الصحابة الكرام رضي الله عنهم. لقد أدركوا أن الرسول ﷺ بعث معلما ومرشدا لهم، فكانت أذهانهم وعقولهم وأفئدتهم وجميع جوارحهم متيقظة منتبهة لكل ما يصدر عن الرسول ﷺ فحرصوا على جعل كل توجيهات الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله سلوكا يوميا. وهذا ما جعل من هؤلاء الرجال الصحابة نماذج بشرية لم يعرف التاريخ مثيلا لهم.. فهؤلاء هم الذين بنوا حضارة التوحيد وأسسوا العمران وأنقذوا شعوبا كثيرة كانت تقاسي من مآس عديدة.. بعبارة أخرى كان الرسول ﷺ في تصور الأستاذ فتح الله بمثابة معلم لكل من على أكتافه انتشر الإسلام وذاق حلاوته من شعوب وأقوام، لا حصر لهم، يقول: "لذا، نرى أن الصحابة الكرام ﷺ -وقد عرفوا أنه بعث لتعليمهم وتربيتهم- يهتمون ليس فقط بالاستماع إلى أحاديثه المتعلقة بأسس الدين وقواعده، بل بكل تفصيل دقيق من تفاصيل حركاته وسكناته وحتى أموره الخاصة، ثم يكررون ما سمعوه منه فيما بينهم ويتداولون أحاديثه فيما بينهم حتى تنطبع في ذاكرتهم أو يسجلونها ويكتبونها. وكانوا يعدون كل كلام صادر منه ﷺ أبرك ذكرى وأفضل أمانة، ويجتهدون ألا تضيع حكمة واحدة منه. وقامت هذه الجماعة المباركة بحمل هذه الأمانة المقدسة في جو من الثقة والاطمئنان"[١٦١].

خصص الأستاذ فتح الله في كتاب "النور الخالد" آخر الكتاب بملحق

النيل، ط:٥، القاهرة ٢٠٠٩ م، ص:٦١٠.

[١٦١] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٦١٠.

عنوانه "السنة النبيوة ومكانتها في الشريعة الإسلامية". ونلمس في هذا الاهتمام دليلا على أهمية هذا المكون بالنسبة للثقافة الذاتية، كما يدل في الوقت نفسه على صفاء السنة من الشوائب التي قد تطعن فيها كما بيّنّا سالفا، لكنها تدل في الوقت نفسه على الدور الذي قام به الصحابة الكرام في تدوين السنة والحفاظ عليها، والدور الذي قام به كبار العلماء الذين تربّوا في هذا السنة النبوية من خلال وضعهم للضوابط التي حصنت السنة وحمَتْها من التحريف والتزوير، من خلال بنائهم لمنظومة "علم الحديث" الذي يعتبر اليوم من أكثر العلوم دقة وانضباطا للمنهج العلمي الذي توصّل إليه العقل البشري.

وعلى العموم فإن اهتمام الأستاذ بالسنّة النبوية كان اهتماما كبيرا وخاصا، واهتمامه بها لم يقف عند حدود الإعجاب بل كان حريصا على تطبيقها وتفعيلها، بدءً بنفسه، ومرور بكل مَن تلقّوا على يده، وانتهاء بجميع أفراد المجتمع. ولذلك كان الطابع الغالب على كتاب "النور الخالد" هو الإكثار من ذكر تصرفات وقصص الصحابة التي تشير إلى تأثير شخصية الرسول ﷺ في الصحابة.

بعبارة أخرى لقد سعى الأستاذ فتح الله من خلال اهتمامه بالسنة إلى تفعيل أخلاق القرآن الكريم من خلال نماذج بشرية حية تتحرك بين الناس، إنها النموذج السلوكي الذي تحضر فيه القيم وتتجلى فيه قيمة التاريخ باعتباره أحداثا وقعت ليس فيها للخيال مكان. لقد كان مطلب الأستاذ فتح الله كولن وما يزال هو الارتباط الكلي بالسنة من خلال العمل على إيجاد نماذج بشرية في مستوى الصحابة الكرام.

لقد تركز سعي الأستاذ فتح من خلال هذا الاهتمام إلى بناء "وعي

جمعي"، وكتاب النور الخالد هو أداة من أدوات تحقيق ذلك.

ثالثًا: الإجماع

ومما يلفت الانتباه في هذه المرتكزات هو أن الأستاذ فتح الله يلح على أهمية العناصر الأخرى التي تنبني عليها الثقافة الذاتية، وهذه العناصر هي الإجماع الذي يعتبر عنصرا مهما في نظر الأستاذ لأنه يقوم على اتفاق بين المتخصصين في مجالاتهم والقادرين "على إثباتِ وتقييم مسألة معينة بالاستناد إلى الأدلة الأصلية واجتماعهم على رأي واحد فيها. فلا يعد اتفاقُ العوام على شيء من المسائل إجماعًا، كما لا ينعقد الإجماع في مسألةٍ تُناقض الأدلةَ الشرعية. كذلك لا عبرة للإجماع فيما ورد فيه من الشارع نصّ، وفيما هو معلوم من الدين بالضرورة. ولا في مواضيعَ مثلِ حدوث الكون وعدم أزليته. ويقع خارجَ شمولية الإجماع قضايا مثل ثبوت حقيقة وجود الله ووحدانيته والنبوةِ. ولا يُتصور الإجماع في الأمور التي يتعلق فهمها ببيان الشارع كأحوال الآخرة وعلامات الساعة وأنواع النعم والعذاب في الأخرى"[١٦٢].

فالإجماع لا قيمة له إذا لم يصدر عن أهل العلم والدراية، لأنه يقوم في الأصل على نوع من الاجتهاد وتقليب القضايا المثارة للنقاش على كل الأوجه قبل بناء حكم دقيق عنها، وعندما يجمع أهل الدراية على الحكم الواحد، ففي ذلك إجماع مؤسس على أن الحكم قد وافق روح التصور الإسلامي وراعى كل مقاصد الشريعة.. والجدير بالذكر في هذا الإطار أن الأستاذ فتح الله كولن يحلم بأن تتحول قضية الاجتماع والاجتهاد بصفة عامة

[١٦٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٨٧-٨٨.

إلى مؤسسة غير مرتبطة بالأشخاص، توكل إليها مهمة العمل على إيجاد أجوبة عملية ومقنعة لأسئلة الواقع المعاصر في كافة المجالات والميادين.

كثيرا ما يتحدث الناس في عالمنا الإسلامي عن الوحدة والتكامل، ولكن العناصر الممهدة لهذا التكامل لا تتحقق إذا لم يكن الناس قد حققوا توحدهم الرؤيوي والفكري، وإذا لم يتحول الاجتهاد إلى مؤسسة ذات ضوابط معروفة تمارس سلطة معروفة على الأفراد والجماعات، إذ يقول الأستاذ فتح الله عندما يتحدث عن نقاط الالتقاء والاتحاد: "لا تتصرف أبدًا كحَواريّ الوحْدة، ولا تقل لكل من تقابله "تعال لنتّحد!"، لأنها دعوة ليست في محلّها. أما عندما تقول هذا بأسلوب من يدعو الآخرين للانضمام إلى مجموعته فهو خطأ أكبر وعدم توقير، ذلك لأن مثل هذا الأسلوب لا ينتج عنه -حتى عند أكثر الناس جنوحًا للخيال- سوى زيادة التعصّب لجماعته، بل قم بالثناء على خدماتهم واحترم ووقّر مرشديهم"[١٦٣].

رابعًا: التصوف وبناء صرح الروح

جرت العادة أن يأتي ترتيب العرف بعد هذه المصادر الأساسية السابقة، لكن الأستاذ يجعل التصوف مصدرا أساسيا من مصادر الثقافة الذاتية، إذ للتصوف أهمية خاصة في رؤية الأستاذ فتح الله كولن، لكن التصوف عنده ليس هو تلك الممارسات التي طبعت -وما تزال- العديد من الطرق الصوفية، بل يقصد به حياة القلب والروح.. ونظرا لكون الأستاذ فتح الله كولن سنّيًّا، فإن نظرته للتصوف تنطلق من طبيعة الحياة الروحية التي

[١٦٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٧٢.

كان الرسول ﷺ يحرص على ألا تفارق جميع أحواله وجميع أقواله. فالناسك والمتصوف الأول هو الرسول ﷺ الذي عاش حقيقة التصوف في لحظة من حياته. ولما كان الرسول ﷺ على هذه الصورة المثالية من جهة الحياة الروحية، ولما كان الأستاذ فتح الله يعتبر الرسول ﷺ قدوته الأولى، فقد كانت حياة القلب والروح هي أساس حياته الخاصة، كما تدل على ذلك مختلف مراحل حياة الأستاذ فتح الله، وهي الملامح نفسها التي عمل على تربية محبّيه وتلاميذه عليها، دون أن يكون شيخ طريقة أو تابع طريقة ما في التصوف، يقول معرفا التصوف: "التصوف، اسم يطلق على الطرق الموصلة إلى الحق تعالى، يسلكها الصوفي والمتصوفة. فالتصوف يعبّر عن الجانب النظري لطريق الحقيقة، والتنسكُ (التَدَروُش) يُعنَى بجهته العملية. وأيضًا أُطلق على الجانب النظري للطريقة "علم التصوف" وعلى جهتها العملية "التنسك". ويرى بعض أرباب الحقيقة أن التصوف هو إماتةُ الله جهةَ الإنسان النفسية والأنانية والسموّ به إلى حياتية أخرى بأنواره الذاتية. وبتعبير آخر: إفناءُ الله الإنسانَ بإرادته سبحانه، ودفعه إلى العمل بإرادته الخاصة واختياره الأحدي. ومقاربة أخرى: إن التصوف هو المجاهدة المستمرة والمراقبة الدائمة لإزالة الإنسان جميعَ أشكال الأخلاق الذميمة عنه وتخلّيه عنها، وإقامته الخصال الحميدة الرفيعة، وتحلّيه بها"[١٦٤].

فالتصوف بصفة عامة لا يخرج عن إطار ذلك التعريف الذي يعرفه علماء السنة الأوائل الذين ارتبطت حياتهم بالتصوف أو بحياة القلب

[١٦٤] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن (ترجمة: إحسان قاسم الصالحي)، دار النيل، ط:١، القاهرة ٢٠٠٥م، ١٣/١.

والروح. ومن هنا فإن مفهوم التصوف عند الأستاذ المربّي فتح الله لا يخرج عن إطار كونه الإقبال على الله بكل حماس من خلال الالتزام بتعاليم الدين، إنه بكلام آخر هو الانسلاخ عن الصفات البشرية، والتدثر بالأخلاق الإلهية.

يرى الأستاذ فتح الله كولن أن تعريف التصوف بعناوين كثيرة لا يعني عدم ارتباطه بالشريعة، وكونه يعنى بالجوانب الباطنية لا يعني عدم اتصاله بالشريعة، ولا يعني عدم ارتباطه بالحياة والواقع، ولا يعني كذلك اعتزال المجتمع والعيش.

لقد عمل الأستاذ فتح الله على إضفاء الشرعية على التصوف من خلال تجاوز الاسم والتركيز على المسمى، يقول: "إن تعريف التصوف بعناوين مختلفة كعلم الباطن وعلم الأسرار وعلم الأحوال والمقامات وعلم السلوك وعلم الطريقة، لا يعني افتراقه عن العلوم الشرعية، إذ إن هذه الأسماء والعناوين نابعة من تذوق أمزجة متباينة ومشارب مختلفة للحياة القائمة على الشريعة طوال عصور مديدة وإدراكها بصور متنوعة. لذا يعدّ انحرافًا ومجانبة للصواب إظهار وجهات نظر الصوفية أنها مختلفة في الأساس عن أفكار خدام الشريعة واستنباطاتهم. ورغم أن هناك في كل عصر من العصور متعصبين من الصوفية ومتشبثين بظاهر الأحكام الشرعية من الفقهاء والمحدّثين والمفسرين، إلاّ أن أرباب الصراط المستقيم هم الأكثرية دائمًا بالنسبة لهؤلاء الذين أفرطوا وفرَّطوا. وبناء على هذا فمن الخطأ قطعًا تناول المسألة وكأن هناك منافاة حقيقية بين أهل الحق من كِلا الجانبين، نظرًا إلى أقوال ومفاهيم غير لائقة لقسم من الفقهاء على المتصوفة أو لقسم من المتصوفة على الفقهاء، وذلك

لأن عدد الذين يثيرون مثل هذا النزاع ويشاركون فيه يُعدّون قطرة من بحر بالنسبة لمن يسلكون طريق التسامح والعفو والصفح. وفي الحقيقة إن هذا أمر طبيعي جدًّا، لأن مرجع كِلا الطرفين واحد، فمثلما يرجع الفقهاء إلى الكتاب والسنة في الأحكام الشرعية يستند الصوفيون كذلك إلى المرجعين نفسيهما"[١٦٥].

لا شك في أن طبيعة التربية التي تلقّاها الأستاذ، وطبيعة الأجواء الروحية التي كانت تطبع الحياة الاجتماعية في منطقة أرضروم، قد أثّرت في شخصيته وطبعتها بطابع روحاني خاص. فمن المعلوم أن الأستاذ ينحدر من أسرة معروفة بروحانيتها الكبيرة. فقد كان جده وجدته شخصيتين معروفتين بالورع وبالإحساس المرهف، إلى درجة أن الجدة كانت معروفة بكثرة بكائها عندما تسمع موعظة أو يأتي ذكر الرسول ﷺ، أو ذكر أحد من الصحابة الكرام ﷺ. لقد كانت أسرته أسرة محبة للرسول ﷺ ولصحابته ﷺ، يضاف إلى ذلك الشيوخ الذين أثّروا فيه، وقد ذكر بعضهم في "دنياي الصغيرة". فعامل الوسط الذي ترعرع فيه الأستاذ فتح الله كولن هو الذي ساهم بالإضافة إلى عوامل أخرى في اهتمام الأستاذ بالتصوف من جميع جوانبه السلوكية والفكرية.

فالتصوف بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن، له أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية المصادر الأخرى ولا تختلف، بل يمكن القول إنها تكملها، وذلك لأن الشريعة والتصوف ينطلقان من المصادر نفسها وهما القرآن السنة. وفي هذا الإطار حرص الأستاذ فتح الله على إبطال ذلك العداء الذي

[١٦٥] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٥-٢٦.

برز خلال مراحل تاريخية مختلفة بين التصوف والشريعة أو بين الحقيقة والشريعة. فالأستاذ فتح الله كولن يعتبر هذا العداء مجرد عداء وَهْمي ليس غير. ويرجع إلى انطلاق التصوف والشريعة إلى مصدر واحد، ولذلك فالفصل بينهما تجزيء ما لا يجزّأ. وقد نبذ فتح منذ اللحظة الأولى هذه الازدواجية عندما جعل أساس حياته الخاصة وأساس المشروع الإصلاحي الذي انطلق منه هو ضرورة الجمع بين الجانب العملي الذي تمثله الضوابط العملية المستخلصة من القرآن والسنة، وبين الحياة القلبية أو بين الشريعة والحقيقة. لأنه يعتقد اعتقادا راسخا بأن الحقيقة والشريعة وجهان لعملة واحدة، يستحيل فصلهما.

بعبارة أخرى لقد كانت رؤية الأستاذ متجهة إلى البحث عن السبل التي تكفل توحد المجتمع، وتنزع كل عناصر الخلاف المتوهمة بين بعض فئاته الاجتماعية. فتوهُّم الخلاف بين الشريعة والتصوف أو بين الشريعة والحقيقة من شأنه إثارة التوتر الاجتماعي والجدل حول خلافات متوهمة، يقول: "وفي الحقيقة إن قصد كلا الطرفين هو الوصول إلى الله بمراعاة أوامره ونواهيه، ولكن لعدم تأصيل ميزانٍ يوزَن به طريق الوصول أحيانًا وفق مقاييس شرعية أدّى إلى الإفراط والتفريط؛ وسبّب ما يبدو لنا من اختلافات في الوقت الحاضر. والحال لا سبب للاختلاف في المنشأ والأساس. وكما أن تدوين أقسام مختلفة من الدين بشكل مستقلّ والامتثال بها لا يعني اختلافًا، كذلك ليس اختلافًا قطّ اهتمام علم الفقه بأحكام العبادة والمعاملات، أي تنظيم حركات الإنسان الفكرية والعملية وتنسيقها، وكذا جهود التصوف لرفع حياة الإنسان إلى مستوى القلب والروح بسلوك تربية الروح وتصفية القلب وتزكية النفس. فلا اختلاف

ولا افتراق، بل قد تعهّد كلٌّ من الجانبين بالحفاظ على ناحية مهمة من الشريعة، فكلٌّ من تلك النواحي بمثابة كلية من الجامعة التي تمثل الكل، والتي يتوقف تكاملها على تكامل تلك الكليات. حيث إن إحداها تعلّم كيف يتعبد الإنسان وكيف يتطهر للعبادة، وكيف يقيم الصلاة وكيف يصوم وكيف يزكّى، وعلى أي أساس يستند في معاملاته.. بينما الآخر -فضلاً عن هذا- يؤكّد باهتمام بالغ على علاقة جميع العبادات والطاعات والمعاملات بالقلب والروح، فيبحث عن طرق رقي الإنسان "الصورة" إلى الإنسان "السيرة" أي المعنى. ويوصي بالطرق المؤدية إلى الإنسان الكامل. وعلى هذا الأساس فلا يمكن إهمال أيٍّ من الجهتين"[١٦٦].

يرى فتح الله أن السبب الذي أدى إلى وجود هذا الخلاف هو عدم تأصيل ميزان يوزن به طريق الوصول وفق مقاييس شرعية. الأمر الذي أدّى إلى الإفراط والتفريط في الوقت الذي يكون فيه الحقلان الحقل الكبير الذي هو حقل الدين والعبودية لله تبارك وتعالى، إذ إن كل حقل قد تعهد بالحفاظ على جانب من جوانب الشريعة، فهما يكمّلان بعضهما البعض.

يعتبر فتح الله التصوف أكثر غورا، لأن التصوف في نظر فتح الله طريقة للعبادة تهتم بالباطن، وبالجانب الروحي للأحكام الشرعية، ولذلك فهو أكثر غورا ولدنّية وأوسع مدى وأصعب فهما.[١٦٧] ومن هنا يأتي استشهاده بما قام به الإمام الغزالي الذي استطاع التأليف بين التيارين، مما يدل على أهمية هذا العنصر عنده، لدرجة أنه يعتبر الغزالي مجدد عصره حيث يقول

[١٦٦] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٢-٢٣.

[١٦٧] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٥.

عنه: "أتى حجّة الإسلام الإمام الغزالي وألّف كتابه القيّم "إحياء علوم الدين" بعد أن نقّح طرق التصوف بجميع آدابه وأركانه واصطلاحاته، مقرًّا بما أقرّه المشايخ عامة ومنتقدًا لما يستوجب النقد.. فآلف مرةً أخرى بين هذين التيارين المباركين اللّذَين يبدوان كأنهما مختلفان، ووفّق بينهما بانسجام تام، بحيث إن كثيرًا من الصوفيين الذين أتوا من بعده وجدوا علمهم لونًا من ألوان العلوم الشرعية، وبُعدًا من أبعادها، فانتعشت الوحدة والتعاون في كل مكان، حتى إنهم انسجموا وائتلفوا مع الذين كانوا يطلقون عليهم -إلى ذلك اليوم- اسم "علماء الرسوم" استخفافًا بهم. وخاصة لدى حملهم إلى المدرسة الفقهية توضيحات متميزة في علم التصوف، أمثال الحقائق الوجدانية والذوقية الكثيرة، كعلم الحال وعلم الخاطر وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم الأخلاق. فوجدوا نقاط التقاء مشتركة كثيرة جدًّا توصلهم إلى الاتفاق والوفاق، سواءً في أرباب التصوف أو علماء الظاهر"[١٦٨].

ما يهم فتح الله كولن في مقاربته لعلاقة التصوف بالشريعة، وربطه للتصوف بالحياة الروحية والمعنوية، وجعل كل ذلك في علاقة وثيقة بالشريعة، هو أن يبرز بأن النموذج البشري الذي يستطيع تحقيق الانبعاث والنهضة الذي يستطيع الارتقاء في المقامات التي تحقق الإنسان الكامل هو أن تكون حياته الروحية شيئا حاضرا مع هذا النموذج البشري في كل وقت وحين.. بعبارة أخرى إن الأستاذ لا يريد متصوفة يعتزلون الناس وينقطعون في صوامع بعيدة عن المجتمع، بل على العكس من ذلك

[١٦٨] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٤.

إنه يريد متصوفة ينخرطون في الحياة بين الناس يبنون ويربّون ويصلحون ما فسد بروحانية كبيرة وبصبر على الناس وعلى والواقع ومجرياته. فهو يريد فرسانًا بقلوب متصوفة، هذا هو نموذج التصوف الذي يريد الأستاذ فتح الله الوصول إليه.

يمكن اعتبار كتاب "التلال الزمردية... نحو حياة القلب والروح" كتابا في القيم والأخلاق بالدرجة الأولى بالمفهوم الذي عمل الأستاذ فتح الله على بلْورته عمليا بدءً من ذاته ومرورا بتلامذته الذين تربّوا في كنفه وتلقّوا منه التربية السلوكية مباشرة، وانتهاءً بعموم أفراد المجتمع الذين ألهبت أفكاره وخطبه وسيرته مشاعرهم ودفعتهم إلى حركية فعالة، هي اليوم مثار اهتمام الدارسين والباحثين في كل مكان في العالم.

لقد توقفنا وقفة طويلة عند هذه العناصر نظرا لأهمّيتها، ولأنها تشكل أسسا تنبني عليها الرؤية التربوية التي ترتكز على حياة القلب. وهذا العامل فرض على الأستاذ إثارة مفهوم الصوفي وحقيقته.. وبكلام آخر حاول مناقشة خصوصيات رجل القلب. وهذه الرؤية الخاصة للتصوف وللمريد، الغرض منها هو تكوين نموذج الإنسان المثالي، أو الإنسان الكامل، إنه صوفي القرن الواحد والعشرين، نموذج الإنسان الذي يستطيع تغيير وجه العالم ويسير به نحو برّ الأمان.

فغاية التصوف هي ربط القلب بالحقّ سبحانه وتعالى، وجعل هذا القلب يكتوي بنار العشق والمحبة.. ولذلك كان الصوفيون على مر التاريخ -باستثناء بعض الانحرافات التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى- "في غاية الاستقامة ومنتهى البساطة، ومبرّأون من كل انحراف وفساد، وأبعد الناس عن الأذواق البدَنية والسفاهات الجسمانية.. وقفوا أنفسهم ليمضوا

حياتهم في جوّ التسامي للتنسك والزهد والفقر، رزينون وعازمون على التشبه بالرسول الكريم ﷺ وعظماء الإسلام الأماجد"[١٦٩].

وخلاصة القول بخصوص هذا الموضوع هو أن روح التصوف الحقيقي هو تزكية النفس والارتقاء بها نحو مدارك الصفاء الروحي ونحو مقامات الإخلاص والتفاني.. إن هذه الروح هي ما يحمِّس الأستاذ في التصوف، لأنه ضرورة بالنسبة لمشروعه الإصلاحي، لأن حياة الحركة والعمل النافع تحتاج إلى النموذج البشري الذي تجتمع فيه عناصر الفاعلية الواقعية من عناصر قوة القلب والروح.

ويتأكد كل ذلك عندما ننظر في العناصر التي تبني النموذج الصوفي الذي يريد الأستاذ فتح الله الوصول إليه.. فهي عناصر ومقومات أخلاقية بالدرجة الأولى. ومَن يتأمل فيما سطره الأستاذ في كتاب التلال الزمردية وفي كتب أخرى سيلمس هذا البعد الأخلاقي الروحي.

خامسًا: العقيدة الصحيحة تمنح التوازن

١- العقيدة والفكر الديني في رؤية الأستاذ فتح الله كولن

وإلى جانب العناصر السالفة فإن مفهوم الثقافة يتعزز بقضية العقيدة الصحيحة. وقضية العقيدة الصحيحة متصلة شديد الاتصال بالفكر الديني عند الأستاذ فتح الله كولن بصفة عامة.

لا شك أن الفكر الديني عند الأستاذ فتح الله عميق الغور، واسع الرؤية، دقيق الاتصال بالأصول إلى درجة كبيرة.. بل إن الفكر الديني

---

[١٦٩] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٣٠.

obeikandl.com

بصورة عامة وليد هذه الأصول ووليد ميراث الذات الثقافي، أو هو ميراث الثقافة الذاتية كما يطلق الأستاذ فتح الله عليها.. ولهذا فإن تناول الجانب العقدي في فكر الأستاذ ينبغي ربطه في كل المراحل بخصوصية المشروع الحضاري الذي ينطلق في ضوئه الأستاذ فتح الله.

إن الأساس الذي يحرك "الخدمة" ويحرك الدعوة بصورة عامة هو الدين وأفكاره المتقدمة. ولن نبالغ إذا قلنا بأن سر ذلك هو الفهم العميق والدقيق لمقاصد الدين، بالإضافة إلى دراية بسبل ومسالك تفعيل هذا الفكر الديني واقعيا. فالفكر الديني لا ينبغي أن يظل مجرد أفكار، ومجرد رؤى وتصورات وأفكار حبيسة في دائرة النظر، بل ينبغي أن تتحول إلى سلوك.. بل يمكن القول إن أهم ما أضافه الأستاذ فتح الله باعتباره مفكرا إصلاحيا وباعتباره رجلا حركيا هو تمكنه من نقل الفكر الديني من المستوى النظري إلى المستوى التطبيقي. وأهم ما يتم التركيز عليه في هذا الإطار هو جانب العقيدة. وتناوُلُ الأستاذ فتح الله من هذه الزاوية يعتبر أمرا دقيقا جدا، وموضوعا متسعا باتساع القضايا التي تطرق لها طيلة حياة التبليغ المستمرة منذ أكثر من خمسين سنة، ارتباطا بمجريات الواقع وتشعب مستوياته.

فقد كانت العقيدة من أهم قضايا التي تعرض لها فتح الله في أغلب خطبه وفي محاضراته وفي كتبه نظرا لأهميتها عنده، فلا مجال للحركية دون عنصر العقيدة التي تقوم بمهمة توجيه الفعل والحركية. فالعقيدة هي التي تحافظ على توازن علاقة الإنسان بواقعه ووجوده كله، ومن السهل إدراك العوامل التي تجعل الأستاذ فتح الله يهتم بموضوع العقيدة والفكر الديني كل هذا الاهتمام، وذلك بإنعام النظر في خصوصية "حركة

الخدمة" التي تلحّ على إلغاء الأنانية الفردية والجماعية وإرجاع كل فضل وكل توفيق إلى الله تبارك وتعالى.. إذ ليس هناك أدنى مجال لمجرد الظن بأن النجاح والتوفيق هو من البشر ومن نجاعة المناهج والخطط المتبعة في تنزيل الأفكار والرؤى. والمتأمل في كتاب "القدر في ضوء الكتاب والسنة" سيدرك الأبعاد العقدية التي تأسست عليها رؤية الأستاذ فتح الله كولن، خاصة عندما يتناول موضوع الإرادة في علاقتها بالقضاء والقدر، إذ تظهر صعوبة تناول القضية العقدية نظرا للعوامل الآتية:

العامل الأول: هو تعدد مستويات الفكر الديني بصفة عامة عند الأستاذ فتح الله والفكر العقدي على وجه الخصوص عما ذكر سالفا.

العامل الثاني: تداخل فكر الأستاذ فتح الله وارتباطه بروح الدين، لأن منطلق أفكار الأستاذ وحلوله وتحليلاته من الإسلام. فكل مشاريع الخدمة المختومة بروح العصر والحداثة، توجهها الفكرة الدينية أو الرؤية الدينية. ولذلك فإن الفصل بين مستويات هذا الفكر مجرد فصل إجرائي أو صوري، لأن الأفكار في ظل منظومة الأستاذ فتح الله الإصلاحية لا تدرك كل مراميها إلا في دائرة مظاهر تنزيلها وتطبيقها.

العامل الثالث: حاجة الأستاذ فتح الله في كل ما كتب إلى استحضار روح العقيدة السليمة في كل ميادين الحياة، وخاصة في مجال شحذ الهمم وترغيب الناس في الفعل والعمل. ولذلك فإن العقيدة حاضره في عموم رؤية الأستاذ، بل نستطيع القول إن كل رؤية وتصور وموقف وسلوك صدر من الأستاذ متصلة بخيط ناظم هو العقيدة الصحيحة المتسامية، والتي يعاد ضبطها وتقويتها في كل وقت وحين في عالم المعنى الذي تبدو ارتباطات الأستاذ به أكثر قوة من ارتباطه بالعالم المادي.

يخبر جميع من عاشر الأستاذ أنه يعيش حالات روحانية قلّ نظيرها، تقوم على مجاهدة النفس وتصفية الروح والابتعاد بهما عن كل ما يكدر صفاءهما من هموم الدنيا والأهواء... وذلك بإلزام نفسه بضروب من العبادة لا يستطيعها الآخرون، فهو يعتبر العبادة بكل مظاهرها والإكثار منها من خلال النوعية والكمية هي مفتاح التوفيق والنجاح. فالأستاذ فتح الله كولن -كما يذكر ذلك تلامذته المقربون منه- كثيرا ما تنتابه حالات حزن شديد يخرج بعدها وقد امتلأت روحه. ودخول الأستاذ في مثل هذه الأحوال مرتبط بحالات استشعار قصوى باقتراب أزمات الواقع.

لا شك أن هذه الرياضة الروحية تحتاج إلى عقيدة قوية وإلى ضرورة تجديد معانيها في القلب والروح، فلا يقدم أمرًا، ولا يوجه الناس أو ينصحهم أو يحثهم على عمل وإنجاز دون أن يكون للعقيدة أثر في ذلك، بعد أن تختمر وتنضج في معمل الروح.

٢- روح العقيدة روح الإصلاح والانبعاث

إن مشروع الأستاذ الإصلاحي يستمد قوته من حضور مقومات العقيدة السليمة في كل مراحل بنائه. وهنا مكمن التميز في فكر الأستاذ فتح الله.

فما مقومات العقيدة عند الأستاذ فتح الله كولن؟

وما القضايا الأكثر إلحاحا عليه؟

الأستاذ فتح الله مسلم سنّي ماتُريديّ العقيدة، لكنه عندما يتكلم في العقيدة الأشعرية تحسبه أشعريا كما يخبر بذلك بعض تلامذة الأستاذ.. فالأستاذ وإن كان ماتريدي العقيدة يعمل على بناء رؤية عقدية تنسجم مع روح المشروع الإصلاحي الذي يتبنّاه، وهو المشروع الذي يتطلب

أن تكون قضية العقيدة فيه أمرا يسهل استيعاب العموم له، خاصة إذا استحضرنا أن الأستاذ فتح الله يخاطب عموم الناس، وإن كان يخص المقرّبين منه بمستويات خطاب عالية في الجلسات الخاصة، لكنه في مواعظه وفي الخطب المنبرية وفي المحاضرات وفي غير ذلك من المناسبات التي يكون العموم أكثر حضورا، يحرص على يكون الخطاب في مستوى إدراك العموم.

وبغضّ النظر عن طبيعة المنطلق العقدي للأستاذ فإنه لا يخرج عن دائرة أهل السنة والجماعة. فمنهجه في علم الكلام وفي العقيدة هو منهج أهل السنة الذي يبتعد عن الخوض فيما لا يجوز في حق ذات الله تبارك وتعالى.

منهج الأستاذ فتح الله في باب العقيدة منهج متجدد يستفيد من مصادر كثيرة من بينها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الذي كان موضوع التوحيد والعقيدة من أهم ما ركز عليه في رسائله من خلال رفعه لشعار "إنقاذ الإيمان". شيد النورسي في رسائله منظومة عقدية حية تخاطب العقل والروح، وتوظف من أجل ذلك الحقائق العلمية والكونية، بل يمكن القول بأن رسائل النور كتاب في علم الكلام جعل موضوعه الأساسي إثبات وحدانية الله وإثبات قدرته ووظف من أجل ذلك عددا كبيرا من الدلائل الوجودية وغيرها، ولا شك في أن جوانب من منهج النورسي ظاهرة في منهج الأستاذ فتح الله.

فإذا كان النورسي هو متكلم العصر الحديث -كما يذكر ذلك الدكتور محسن عبد الحميد- فإن فتح الله قد استفاد كثيرا من أفكار النورسي، لكنه طبعها بشخصيته، وصبّها في قالب خاص يمزج بين المقاربة العقلية،

والحقيقة العلمية وضوابط الإقناع والحوار مستفيدا في ذلك من الخطاب القرآني ومنهجه في ذلك، ومسترشدا بالمنهج النبوي في إضاءة هذا الخطاب، دون أن ننسى أن انتماء الأستاذ إلى المذهب الحنفي يجعله أكثر قربا إلى استعمال الفكر والعقل في باب الاجتهاد، وذلك لأن المذهب الحنفي وخاصة في باب الفقه أكثر المذاهب الأربعة توظيفا للعقل والفكر.[١٧٠] وإذا كان المذهب الحنفي أكثر المذاهب الأربعة توظيفا للعقل، فإن المذهب الماتُريديّ في العقيدة يتموقع في موقع وسط بين المذهب الأشعري والمذهب الاعتزالي. وتكمن دلالة ذلك في كون الأستاذ فتح الله ميالا إلى الرؤى الفكرية التي تستطيع توحيد مختلف التصورات الفكرية في مجال العقيدة، بالإضافة إلى أن هذا التوسط يتيح لفتح الله المتكلم التوقف عند حدود الرؤية التي تقف عند حدود الفكر العقدي القديم الذي كان يضع حدودا معينة لا يجوز تجاوزها تأدّبا مع الله.

كتب فتح الله الكثير في باب العقيدة، بالإضافة إلى خطبه المنبرية ومجموع فتاويه وإجاباته على مختلف الأسئلة المتعلقة بالعقيدة وبالقدر والتي جمعت في كتب، لكن لم يترجم من هذه الكتب إلى العربية سوى كتابين: الجزء الأول من سلسلة "أسئلة العصر المحيرة" وكتاب "القدر في ضوء الكتاب والسنة".. وهناك كتب في هذا الموضوع مطبوعة باللغة التركية مثل "في ظلال الإيمان" و"البُعد الميتافيزيقي للوجود" إلا أنها لم

[١٧٠] Ismail Acar, A classical Scholar with a modern outlook: Fethllah Gülen and his legal thought, in mastering knowledge in modern times, Edited by Ismail Albayrak, copyright 2011 by dome press, pp 65 - 84: p71.

تترجم إلى العربية بعدُ.. ولذلك فإن الذي نقف عليه لا يمثل سوى جزء يسير من الرؤية الكاملة لفلسفة العقيدة والقدر في رأي الأستاذ فتح الله.

٣- منهج بسط العقيدة عند الأستاذ فتح الله

إن منهج تلقين العقيدة عند الأستاذ لا يخرج عن منهج أهل السنة والجماعة كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ففتح الله المربّي والمعلم لا يفتأ ينبّه إلى عدم الاشتغال بما لا فائدة من الخوض فيه، وخاصة القضايا ذات البعد الكلامي، بمعنى أن الأستاذ يميز بين القضايا العقدية التي تربط الإنسان بالخالق وفائدتها في تقوية هذا الإنسان، حتى يكون كائنا يحسن معرفة الخالق من خلال كل مكونات الكون والوجود. ولذلك عندما تطرح عليه أسئلة متعلقة بذات الله أو متعلقة بأمور الغيبية يعتبر كل ذلك نوعا من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى، يقول في أسئلة العصر المحيرة جوابا على سؤال وُجّه له عن جوهر الله وماهيته: "أجل، فنسبة ما يراه الإنسان في هذا العالم يبلغ فقط خمسة في المليون تقريبا، وكذلك نسبة ما يسمعه. فمثلاً لا يستطيع أن يسمع صوتًا اهتزازه ٤٠ تردد في الثانية. كما إذا تجاوز هذا التردد الآلاف فلن يسمع أيضًا. إذن فحاسة السمع عند الإنسان محدودة، ولا تدرك هذه الحاسة إلاّ نسبة صغيرة في المليون. كما أن مجال بصره وسمعه محدودان جدًّا. إذن كيف يستطيع هذا الإنسان المحدود في علمه وبصره وسمعه أن يتجرّأ ويسأل: لماذا لا يرى الله؟ وكيف هو؟ إن طرح الإنسان مثل هذا السؤال ومحاولته نَسبَ الكمية والكيفية لله تعالى أو محاولة التفكير في ذاته جرأة وتجاوز

للحد"[١٧١].

لا شك أن الجواب يحمل في طياته الكثير من الأبعاد التربوية التي تقوم على توظيف المنطق العقلي، حيث نلاحظ حرص الأستاذ على تقديم أجوبة علمية منطقية قريبة من مستوى إدراك الإنسان. وضمنيا فالأستاذ فتح الله كولن عندما يقف على مثل هذه القضايا، إنما يوجه انتباه الناس إلى أن المنهج الأسلم هو منهج السلف ومنهج أهل السنة والجماعة.

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام في تحليلات الأستاذ هو إلحاحه على الأسلوب الذي يتوجب به تناول القضايا الكبرى كقضايا العقيدة. فعلى الرغم مما نلمسه من دراية معرفية وعلم في أجوبته في مختلف الحقول المرتبطة بالإنسان وحقل العقيدة والقدر ضمنها، فإنه يبدو حذرا في كل إجاباته. وهذه ناتجة فيما نرى عن رغبته في إظهار التواضع العلمي رغم علمه الواسع. ومما هو معلوم فإن العديد من المهتمين والباحثين يجمعون على أن الأستاذ فتح الله مجتهد، بل هناك من يعتبره أحد مجتهدي القرن ومجدديه، لكنه لتواضعه يرفض اعتبار نفسه مجتهدا ومجددا. ومن يقف على فتاويه يكتشف قدرة كبيرة على استخراج الأحكام وجعلها متماشية مع روح العصر، لأن علمه يتيح له ملاحظة بعض ما وقع فيه بعض الفقهاء من مجانبة للصواب، والرد عليهم بتواضع جم.[١٧٢]

---

[١٧١] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن (ترجمة: أورخان محمد علي)، دار النيل، ط:٢، القاهرة ٢٠٠٦م، ص:١٧.

[172] Ismail Acar, A classical Scholar with a modern outlook: Fethullah Gülen and his legal thought, in mastering knowledge in modern times, pp: 74-75.

٤- غاية العلم في ضوء العقيدة الصحيحة

قضية العقيدة والقضاء والقدر عند الأستاذ فتح الله كولن قضية تحفيز وشحذ همم، ولا يشتغل بها لذاتها وإنما يشتغل بها من أجل إعلاء الهمة وبعث الحياة في الروح وشحنها بالطاقة التي تسعفها في التعامل مع الواقع وقضاياه بكل قوة وبكل ثقة في الله تبارك وتعالى، لأن الأصل في الإنسان -كما يتصور الأستاذ فتح الله- هو مدى همّته في القيام بالواجب الذي أمره به. يقول مبرزا بتركيز كبير هذه الرؤية: "لا تظهر إنسانية الإنسان واضحةً إلا عند محاولته التعلم ثم تعليم غيره وتنويره. والذي لا يحاول التعلم -مع كل جهله- ولا يفكر بذلك ولا يجدد نفسه بما تعلمه ولا يكون قدوة لغيره هو إنسان بالصورة فقط وليس بالسريرة. أما الأمور التي يجب تعلّمها ثم تعليمها للآخرين فيجب أن تكون متعلقة بكشف ماهية الإنسان وأسرار الكون. وكل علم لا يكشف أسرار النفس الإنسانية ولا ينير النقاط المظلمة في الوجود ولا يحلّ العقَد المستعصية لا يعد علمًا.

إن الغاية من تعلم العلم هو اتخاذ المعرفة مرشدًا وهاديًا للإنسان ولتنوير الطرق التي ترقى بالإنسان نحو الكمالات الإنسانية. لذا فالعلوم التي لا تتناول الجانب الروحي للإنسان تكون عبئًا على صاحبها. وكل معرفة لا توجه الإنسان إلى الأهداف السامية ليست إلاّ عبئا للقلب والفكر لا فائدة منها. (....) يُعد العلم الذي وضحت غايته وهدفه وسيلة بركة دائمة لصاحبه، وكنزا لا يفنى. والذين يملكون مثل هذا الكنز يكونون بمثابة نبع ماء سائغ شرابه يرِده الناس طوال حياتهم وبعدها، ويكونون وسيلة خير. أما الفرضيات الجوفاء التي تلقي الشكوك والريب في القلوب،

وتعتم الأرواح والتي لا تملك أهدافا واضحة فهي كومة من المزابل التي تطير حولها الأرواح الكدرة واليائسة وتكون فخا ومصيدة للأرواح"[١٧٣].

ولا شك أن تعلم أمور العقيدة وما يلزم من أمور التوحيد، ومعرفة الخالق وشروط التأدب مع الله، كلها عناصر تندرج فيما يتوجب على الإنسان معرفته. ولذلك فإن اشتغال الإنسان بصفة عامة[١٧٤] بعلم الكلام قد لا يعود بنفع كثير، بالإضافة إلى أن هذا الأمر ليس هو مدار التكليف الإلهي للإنسان.

يهتم الأستاذ كثيرا بقضية العلم في ضوء قضية العقيدة، ولذلك دلالته في منهجه. القائم على ضرورة محاربة أعداء الإنسان الثلاثة: "الجهل" و"الفقر" و"التفرقة".. ولا يقف الأمر عند الأستاذ عند هذه النقطة بل يتجاوز ذلك إلى بيان الأمر بالقول: "من المهم تخليص العلوم الحالية من الجمود والخمود ومن العبثية، وهذا يساعد على فهم مسألة المواضيع التي يهتم بها العلم بوضوح. كما يؤدي إلى قيام الإنسان بأداء ما يقع ضمن حصة إرادته وذهنه، ويستطيع آنذاك مشاهدة مكتسبات أحاسيسه وقلبه مشاهدة باطنية. عندئذ ينقلب المثقف إلى لسان فصيح وإلى قلب يستطيع قراءة الكون الموجود والموضوع أمامه ككتاب مفتوح سطرا سطرا. علما بأن من المستحيل تجاهل أن الكون لا يختلف عن كتاب، ولا سيما في الأوامر التكوينية، أي أوامر الخلق، حيث أن "القلم" كان أول ما خُلق، لذا كان أول أمر في القرآن المنزل هو ﴿اِقْرَأْ﴾"[١٧٥].

---

[١٧٣] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:١١-١٢.

[١٧٤] ربما يكون الاشتغال بهذه المواضيع فرض كفاية، لا ينبغي أن يشغل الناس جميعا.

[١٧٥] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٦.

يلح الأستاذ فتح الله كولن في هذا النص الجميل على عدة مسائل أساسية أهمها قضية العلم الحديث وما يطرحه من إشكالات في دائرة أن العلم الحقيقي هو العلم الذي ينفض عنه غبار الكسل والإهمال ويقود إلى إدراك الكون وقراءته قراءة الكتاب بغاية الاستفادة منه في تحصيل العلم الصحيح والعلم الحقيقي الذي يدل على الخالق ويزيد تعريفا بعظمته وقدرته. فالكون من هذه الزاوية يدل -كما يرى الأستاذ فتح كولن وكما بين ذلك بديع الزمان سعيد النورسي- على الخالق ويهدي إليه، بمعنى أنه كلما زادت قابلية الإنسان لإدراك العلم الحقيقي زادت مساحة التوحيد وإدراكه لذات الله تعالى، وهذا هو ما يريد فتح الله كولن الإشارة إليه في بيانه لمفهوم ﴿اِقْرَأْ﴾ باعتباره أول ما نزل من الوحي على رسول الله ﷺ يقول: "الأمر الإلهي ﴿اِقْرَأْ﴾(العلق:١) أمر ودعوة ووظيفة إلهية وجهت إلى أشرف المخلوقات ﷺ الذي تجلت فيه جميع الكمالات، ومن ثم إلى البشر أجمعين. وهذا الكون المعروض أمام أنظارنا لتتأمله ونفهم معناه ومحتواه، والشاهد على النظام الذي أنشأه الخالق، وعلى قدرته وعظمته وجماله... هذا الكون ليس إلاّ تجليا من تجليات اللوح المحفوظ. لقد جعل الله كل شيء في هذا الكون من أحياء أو جماد -عدا الإنسان- "قلمًا" لكي يقوم كل موجود بوظيفة تسجيل ما أُودع فيه من تجليات وحكم"[١٧٦]. "إذن فإن ﴿اِقْرَأْ﴾ رمز للتوحد وللتكامل وللتكميل، ورمز للمشاهدة والتقييم والرؤية إلى جانب الحدس، وتعبير لساني عن هذه المعرفة الباطنية، وهو يحمل دلالات كبيرة لنا لكونه أول أمر موجه

[١٧٦] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٣.

إلينا"[١٧٧].

فعدم الاشتغال بقضايا علم الكلام تبرره جملة مبررات منها أنه فوق مستوى إدراك الإنسان، ولأن الاشتغال بهذه القضايا ليس هو الغاية من خلق الإنسان، بالإضافة إلى أن الخوض فيها لا يعود بالفائدة على المجتمع والإنسان. يقول: "فمن أنت أيها الإنسان، وماذا تعلم أصلاً لكي تتجرأ وتحاول إدراك الله تعالى؟ إن الله تعالى منزَّه عن الكيف والكم، وهو منزه عن أن تحيط به مقاييسك الناقصة. فلو سافرت بسرعة الضوء تريليون سنة إلى عوالم أخرى ثم راكمت تلك العوالم بعضها على بعض لما بلغ ما شاهدتَه بالنسبة إليه تعالى ذرة أو هباءة"[١٧٨].

ولا ينبغي أن نظن أن الأستاذ ينادي بضرورة ترك علم الكلام، بل إننا نتصور أنه يعتبر الاشتغال به فرض كفاية، إذا اشتغل به البعض سقط عن البعض الآخر.. لكنه ضروري للثقافة الذاتية لأنه الوسيلة التي يدافع بها عن "منظومة المعتقدات الإسلامية بالأدلة العقلية والنقلية، والحفاظ على استقامة فكر المؤمنين، ورد الشبهات والشكوك التي تثار أو يحتمل إثارتها ضد الدين، وحراسة "العقائد الإسلامية الحقة" في إطار السنة السنية إزاء بعض التيارات الفلسفية الخاطئة"[١٧٩].

فإذا كان الغرض هو حماية الدين الذي هو أساس الميراث الثقافي فإن الاشتغال بقضايا علم الكلام يصير ضرورة، لكن شريطة البقاء في إطار الكتاب والسنة. ولا يرى الأستاذ بأسا من الانفتاح على مختلف أبواب

---

[١٧٧] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٦.

[١٧٨] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٧.

[١٧٩] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٩٣.

العرفان شريطة ألا يدخل الفكر في قضايا ضالة، يقول: "وقد حرص قسم من المفكرين والعلماء على البقاء في إطار الكتاب والسنة ولم يسوقوا رأيا منهم في هذه المسائل، في حين أن البعض الآخر لم ير بأسًا في مد البيان بالبرهان وإثرائه بالعرفان، وتوسيعِه بالمحصلات الصوفية والفلسفية، بل رأوا أن الاشتغال بها على هذا الوجه خدمة للدين. صحيح أن التوسع على هذا النحو قد أَدخل إلى النظام الفكري الإسلامي أفكارا ضالة من رواسب الميراث القديم، لكن الواقع أيضًا أنه فَتَحَ أمام المسلمين آفاقًا عظيمة وواسعة"[١٨٠].

فهو يدعو إلى الاشتغال بما يدل على الله تعالى ويشير إلى عظمته من تأمل في مخلوقاته وفي الكون وفي الذات الإنسانية نفسها، لأن كل ذلك جزء من علمه تعالى.. "وجودنا ظل من نور وُجوده، وعلمنا نفحة من العلم الإلهي المحيط بكل شيء. أجل هناك في مستوى ما طريق لمعرفة الله تعالى والوصول إلى اكتساب مرتبة العرفان، ولكن هذا الطريق ليس الطريق الاعتيادي لمعرفة الأشياء، بل طريق مختلف تمامًا. والذين يحاولون معرفة الله بسلوك طريق منحرف هم قسم من البؤساء الذين لم يستطيعوا التغلب على غرور النفس، ولم يعرفوا الإلهام الباطني، ولم يذوقوه. لذا تراهم يقولون: "لقد فتّشتُ عن الله فلم أجده". وهذا تعبير عن ضلال كبير وقول زائف باسم العلم والفلسفة"[١٨١].

ربط الأستاذ فتح الله علم الكلام وقضاياه بالسلوك الذي يتوجب أن ينعكس في كل عمل وفي كل مشروع، بل ينبغي أن يكون الشعار

---

[١٨٠] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٩٣-٩٤.

[١٨١] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٨.

المركزي في جميع المشاريع الحضارية التي أوحى بها لمحبيه فانطلقوا يحققونها بكل حماس وثقة في نجاحها، وفي كونها ستبني المستقبل بتوفيق الله. و"الخدمة" باعتبارها حركة مجتمعية نابعة من عمق حاجات المجتمع التركي على أساس كونه مجتمعا ينتمي إلى العصر الحديث، دون أن يكون منسلخا عن أصوله الثقافية، وتركيز الأستاذ فتح الله كولن على العنصر العقدي في الفعل والحركة وجعل ذلك محركا للخدمة، فيه اعتراف ضمني بأن كل شيء متّصل بالله. فالتوفيق والحركة من الله وبالله.. فالله باعتباره الخالق المتحكم في كل شيء والمتصرف في الكون والوجود بكل حرية، وباعتباره المهندس الأول الذي خط خارطة الكون والوجود بكل توازن ودقة متناهية، يستطيع أن يجعل من حركة الإنسان وخدمته الخالصة لوجهه تعالى جزءا لهذا التوازن. وكأن الخدمة باستحضارها لحقيقة التوحيد تدخل في إطار الهندسة الكبرى التي يريد خالق الوجود لوجوده السير عليها. بعبارة أخرى إن الخدمة جزء من هذا التوازن ما دامت تتحرك في ضوء العقيدة الصحيحة وفي ضوء روح الإسلام.

فالخدمة -من مقترب آخر- هي البوتقة التي يتآلف فيها "الإنسان-الكائنات-الله"، لأنها تجتهد في أن تعيش روح الإسلام. وما يقصده الأستاذ بروح الإسلام ليس الحال التي يوجد عليها الإسلام في الوقع الحاضر، بل هو شيء آخر، يقول: "وإذ نقول "روح الإسلام" لا نعني حاله الذي يبدو في واقعنا الحاضر ومن زاوية نظرنا ووِجهةِ تقويمنا له، باهتا وذاويا وفاقدا بَريقَ جاذبيته السماوية. بل بألوانه ورقوشه البراقة، وكما كانت -ولا زالت- أرواحٌ طاهرةٌ تستشعره فتتذوقه، وكما أحسَّه إنسانُ عصرِ السعادة وعاشه. هذا الروح لا يزال كالبحر الذي لا تسكن أمواجه،

طاهرًا أبدًا، نديًّا، عميقًا لا يتكدّر قط بالأوساخ الفكرية لأي زمانٍ أو مكانٍ. لكنَّ الوصولَ إليه وتمامَ الاستفادة منه يتطلب تثبيتا للنية وتسديدا لزاوية النظر، وعلوا في الهمة وثباتا في المثابرة، وصدقا في التوجه وثقة بالأصل الذي ينتمي إليه"[١٨٢].

لقد قدم فتح الله كولن علم التوحيد والعقيدة الإسلامية وفق نمط منسجم مع المشروع المركزي، وهو بناء الإنسان روحيا ووفق نمط يجعل من هذا الإنسان مخلوقا فاعلا في الكون والوجود، ووفق نمط تتجلى فيه حقيقة "الإنسان العبد لله" المكلف بمهمة إعمار الأرض ونشر الفضيلة. على أن الفارق بين العبادة والإعمار فارق إجرائي، وإلا فإن العبادة لا تنفصل عن الإعمار.

لا يتردد فتح الله كولن في الإجابة عن القضايا التي يراها ضرورية والتي تحتاج إلى التوضيح مخافة وقوع الناس تحت تأثيرِ جاهلٍ يفسد من حيث يريد أن يصلح. ولذلك فهو يوظف أجوبته في إطار تربوي عندما يسأل سؤالا من مثل "لماذا تستحيل رؤية الله؟ وكيف يجاب على من يطرح مثل هذه الأسئلة؟".

يؤمن الأستاذ فتح الله بأن ترك السؤال معلقا دون جواب قد يحدث بلبلة فكرية لدى السائل. ولكي يمنع ذلك يجيب إجابة عقلية منطقية تعتمد الإقناع وتراعي التبسيط حتى يتسنى لكل الفئات إدراك المراد. يقول باسطا جوابه على السؤال السالف: "الرؤية مسألة إحاطة. فمثلاً هناك جراثيم في جسم الإنسان، وقد توجد ملايين من البكتريا أسفل سنّ

[١٨٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٩٨.

واحدة، وهذه البكتريا تستطيع بما أُوتيت من قابليات وإمكانيات نخر سن الإنسان وتخريبها. ولكن الإنسان لا يستطيع سماع صوتها أو ضجيجها كما لا يحس بها ولا بوجودها. كما أن هذه البكتريات لا تستطيع رؤية الإنسان ولا الإحاطة به. ولكي تستطيع الإحاطة به عليها أن تكون في موضع مستقل وخارجي عنه، وتملك في الوقت نفسه عيونًا تلسكوبية. إذن فعدم قدرتها على الإحاطة بالإنسان تمنعها من رؤيته، وهي لا تستطيع سوى رؤية ما موجود أمامها فقط. بعد هذا المثال من العالم الأصغر، لنعط مثالاً من العالم الأكبر: تخيّل أنك جالس أمام تلسكوب كبير يستطيع رؤية أمكنة على بعد أربعة مليارات سنة ضوئية. ومع ذلك فمعرفتنا حول الكون وحول المكان تعد قطرة في بحر. قد نستطيع معرفة بعض النظريات غير الواضحة تمامًا حول المجال أو الساحة التي يغطيها ذلك التلسكوب وبعض المعلومات أيضًا، ونسعى انطلاقًا من هذه الفرضيات والمعلومات لنصل إلى فرضيات ومعلومات أخرى كذلك. ولكننا لا نستطيع الإحاطة الكاملة بالكون ولا بماهيته ولا بإدارته ولا بشكله العام ولا بمحتواه، لأننا مثلما لا نملك إحاطة كاملة في العالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة التامة في العالم الأكبر"[١٨٣].

يرسم الأستاذ فتح الله من خلال جوابه هذا معالم منهج تربوي يقوم على الإقناع بالمنطق والعقل، وعلى دعم المتلقي بكل ما يقرب الأفكار من خلال ذكر الأمثلة العقلية التي لا يختلف حولها العقلاء من الناس، بالإضافة إلى توظيف منهج المقارنة الضمنية التي تحتاج العقل والدليل

[١٨٣] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٠.

الملموس، ولا يعارض المنطق العلمي وقواعده.

بالتحليل العقلي الملموس يدرك كل عقل متوازن أن السؤال في حد ذاته أكبر من أن تدرك حقيقته. وبهذا تبرز أداة ناضجة من أدوات الأستاذ في تطبيق منهج عرض العقيدة وترسيخها. فلسان حاله يدعو كل واحد إلى تصور ذاته في دائرة الإحاطة الإلهية بالقول: "وأنتم... أنتم الذين تُعدون بالنسبة لهذه الأكوان أجزاء ميكروسكوبية كيف تستطيعون ادعاء إحاطتكم بالكون والمكان؟ بينما الأماكن كلها والأكوان كلها تعد أشياء ميكروسكوبية بالنسبة إلى عرشه تعالى الذي هو مجرد محل تنفيذ الإرادة والأوامر الإلهية... أليس هذا اشتغال بالعبث؟ فإذا كان الأمر هكذا فقسْ أنت درجة العبث في محاولة الإحاطة بالله تعالى"[١٨٤].

أشرنا سابقا إلى أن الجانب العقدي في فكر الأستاذ فتح الله مرتبط بمنهجه الدعوي بصفة عامة. وهو وسيلة دعم لرؤيته الفاعلة في الواقع. ولذلك كان هذا المنهج منفتحا على كل النماذج الإنسانية باعتبار ما فيها من خيرية. وبقدر انفتاحه يسعى بكل الوسائل الفكرية إلى منع انتشار الفكر الإلحادي والرد عليه. فإذا كان الإنسان هو العنصر المركزي الذي يحظى باهتمام الأستاذ فإنه يجتهد من أجل تحصينه. بعبارة أخرى إن الأستاذ فتح الله كولن عندما يركّز على العقيدة الصحيحة في تعالمه مع الإنسان، يركز على المرامي الإصلاحية والحضارية والإنسانية التي يتطلع إلى الوصول إليها، وكأن الإنسان المهزوز العقيدة لا يمكنه السير بمشروع الأستاذ الإصلاحي نحو أهدافه ومراميه القريبة والبعيدة. ولذلك

[١٨٤] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢١.

نلاحظ كثرة إلحاحه على هذه الجوانب، والدليل على ذلك هو استمراره في الإلحاح على أبناء الخدمة ومتطوعيها ورجالاتها على قتل الأنانية الذاتية والجماعية. إنها فلسفة التسفير عند الأستاذ، أي "تَسْفِير" النفس وجعلها سفْرا، وليس صفرا، لأن الصاد صوت مجهور إيقاعُه مرتفع لا يوحي بالتواضع.

٥- الإلحاد والسقوط

لفهم الأبعاد المتحكمة في رؤية الأستاذ بخصوص العقيدة، يلزم الرجوع إلى ما قبل سقوط الدولة العثمانية. فقد كان من بين أسباب سقوطها انتشار الفكر الإلحادي والتنكر للدين. وقد وصف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي هذه الوضعية من خلال حديثه عن المذهب الطبيعي الذي كان انتشر آنئذ، وهو سبب من بين الأسباب التي جعلت الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي يعلن مشروعه الكبير "إنقاذ الإيمان". ولم تكن الفترة التي تبعت قيام الجمهورية وإعلان العلمانية بأحسن حالا في هذا الباب. لقد عاصر الأستاذ فتح الله كولن استمرار انتشار الفكر الإلحادي والفلسفات التي قدمت للشباب على أنها فلسفات تقدم الوجه الحقيقي للإنسان، فهرع الشباب إليها دون تعقّل أو تدبّر ودون أن يجدوا مرشدا يرشدهم.. وكأنهم قد نُوّموا تنويمًا، فانتشرت أولا فلسفة فرويد تحت مصطلح "اللبيدو" الذي جرح مفهوم الحياء لدى الناس، ثمَّ طغت الفلسفة الوجوديَّة لـ"جان بول سارتر" و"كامو" فجردت حصون الحياء وجعلتها أثرا بعد عين. حتى غدا الشاب يستيقظ صباحا فيصفق للفوضوية،

وفي الظهر يقف احتراما للنظام الماركسى اللينينى، وفي العصر يحيّي الوجودية، وفي العشاء قد ينشد نشيد هتلريا. ولم يعد هناك شاب يلتفت أبدا إلى جذور روحه، ولا إلى شجرة أمته، ولا إلى ثمار هذه الشجرة.[١٨٥]

رأى فتح الله بعينه كل هذا الفساد الروحى والتدني الأخلاقي، فسعى جاهدا يحمل سيف الكلمة والقلم والتوجيه والوعظ والإرشاد، شارحا ومبيّنا فساد هذه الفلسفات الإلحادية وأثرها الخطير وأنها لا تصلح منهجا ينتهجه المسلم في حياته من أجل إحياء عصر نهضته.. بل لنقلْ إنّ تصدّي الأستاذ فتح الله كولن للإلحاد يرجع إلى إيمانه العميق بأن هذا الوباء غريب عن التربة وعن الواقع وعن أصوله، لأن التربة التي هي هدف الأستاذ فتح الله تربة لا تحيى إلا بالتوحيد وبالإسلام. ولذلك فهو يعتبر أن أحد معوقات الانبعاث والإحياء والانطلاق من جديد هو أن يتوهم المجتمع أن عوامل النهوض تكمن بالدرجة الأولى في التنكر للثقافة الذاتية والتمسك بثقافة غيرية هي ثقافة الغرب الذي جعل من الفلسفة الإلحادية سببا من أسباب التقدم والعصرنة، حيث يقول: "لنضع جانبا بلبلة التكوينات الجديدة في العالم. نحن لا نصدق بولادة شيء جديد من الهندام الرأسمالي القديم أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراتها الاشتراكية أو هجين الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية البالية. الحقيقة أنه إن كان ثَمّ عالم مشرع الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالمنا نحن، وسيتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن"[١٨٦].

فالأستاذ في هذا المقام يعطي لموضوع الإلحاد أهمية خاصة ويوظف

---

[١٨٥] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٧.

[١٨٦] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٨.

من أجل دحض الأفكار الإلحادية كل الوسائل العقلية والمنطقية، بل لا يتوانى عن مخاطبة الملحدين بأوصاف تبين قيمتهم في نظر المجتمع، ولا يتوانى عن بيان تدني رؤاهم بالنسبة لمستقبل الأمة والمجتمع، مرجعا السبب المباشر للإلحاد إلى "الجهل" باعتباره آفة كبيرة تنخر كيان المجتمع، ولذلك توجب التصدي بكل الوسائل، يقول: "إن أوّل بيئة ينمو فيها الإلحاد هي البيئة التي يسود فيها الجهل ويغيب عنها القلب. فكتل الجماهير التي لا تتلقى تربية وتغذية روحية وقلبية ستقع -إن عاجلاً أم آجلاً- في براثن الإلحاد. وإذا لم تتدخل العناية الإلهية فإنها لن تستطيع إنقاذ نفسها. إذا لم تبذل الأمة عناية خاصة في تعليم أفرادها ضرورات الإيمان ولم تظهر الحساسية اللازمة في هذا الأمر وتركت أفرادها في ظلام الجهل، فإن هؤلاء الأفراد يكونون قد دفعوا لتقبل كل إيحاء معروض عليهم"[١٨٧].

الإلحاد عند الأستاذ مجرد انحراف نفسي وعناد فكري مسبق ومزاح طفولي، لكن بعض الشباب لم يتمكنوا من التخلص من تأثير أفكاره التي أكل الزمن عليها وشرب، متوهمين أنها حقائق علمية وهي أبعد ما تكون عن ذلك، ومرد ذلك هو أن هؤلاء الشباب لم يتلقّوا تربية روحية كافية[١٨٨].. فالإلحاد "من الناحية الفكرية هو إنكار الله وعدم قبوله. وفي مستوى التصور هو حالة الحرية بلا حدود. أما في مستوى العمل والسلوك فيتبنّى الإباحية ويدافع عنها"[١٨٩].

---

[١٨٧] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٣١.

[١٨٨] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٣-٣٤.

[١٨٩] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣١.

ونظرا لأهمية موضوع الإلحاد نلاحظ أن الاستاذ فتح الله لا يقف عند حدود إثارة الانتباه إلى خطورته بل يذهب إلى حد تحليل أسباب انتشار وبيان العوامل التي تساعد على انتشاره في المجتمع، وهي تتلخص في عاملين:

العامل الأول، هو انهدام الحياة القلبية للإنسان. ومن هنا يفهم السبب الذي يجعل الأستاذ فتح الله كولن كثير الإلحاح على جانب الحياة القلبية وعلى الجانب الروحي في اهتمامه بالإنسان، بل إن أحد أهم الأسس التي يركز عليها الأستاذ في حركته الإصلاحية هو ضرورة تقوية الحياة القلبية للفرد والجماعة، يقول: "بما أن الإلحاد يعني الإنكار، فإن انتشاره متعلق بانهدام الحياة القلبية وسقوطها. طبعًا يمكن الإشارة إلى أسباب أخرى كذلك. الإلحاد من الناحية الفكرية هو إنكار الله وعدم قبوله. وفي مستوى التصور هو حالة الحرية بلا حدود. أما في مستوى العمل والسلوك فيتبنّى الإباحية ويدافع عنها. انتشر الإلحاد فكريًّا نتيجة إهمال الأجيال الشابة ونتيجة سوء التطبيق في دور العلم ومعاهده، إضافة إلى اكتسابه السرعة والقوة بتلقّيه المساعدات من جهات كثيرة"[١٩٠].

ويقول أيضًا: "إن الحوادث التي انبثقت كل منها من يد القدرة الإلهية والتي كل منها رسالة إلهية، هذه الحوادث -أو بتعبير آخر قوانين الطبيعة هذه- أصبحت في يد الإلحاد وسيلة لاستغفال الأجيال وساحة لبذر بذور الإلحاد. مع أنه سبق وأن كتب آلاف المرّات في الشرق والغرب وذكر أن قوانين الطبيعة هذه ليست إلا آلية تعمل بدقة واتساق واطراد

[١٩٠] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣١.

ومعملا ذا انتاج وفير. ولكن من أين أتت هذه القدرة على الإنتاج ومن أين أتى هذا النظام؟ أيمكن أن تكون هذه الطبيعة الجميلة التي تسحر النفوس والأرواح مثل شعر منظم ونغم موسيقى نتيجة مصادفات عمياء؟ إن كانت الطبيعة -كما يُتوهم- قوة قادرة على الإنشاء والخلق، فهل نستطيع إيضاح كيف استطاعت الطبيعة الحصول على مثل هذه القدرة؟ أنستطيع أن نقول أنها خَلقت نفسَها؟ أيمكن تصديق مثل هذه المغالطة المرعبة؟! أما إن كان القصد من ذكر الطبيعة هو الإشارة إلى القوانين الفطرية، فهذا أيضًا خداع آخر؟ ذلك لأن القانون -بتعبير القدماء- عرض من الأعراض، والعرض لا يقوم إلا بوجود الجوهر.. أي أنه إن لم يتم تصور جميع الأعضاء والقطع التي تكوّن شيئا مركبا أو جهازًا حيويا ما، فلا يمكن تصور مفهوم القانون المتعلق بهذا الجهاز. وبتعبير آخر فإن القوانين قائمة بالموجودات، فقانون النمو يظهر في البذرة، وقانون الجاذبية يظهر في الكتل وفي الحيز (المكان)...الخ. إذن فإن التفكير في القوانين قبل التفكير في الموجودات والزعم بأن هذه القوانين هي منشأ الوجود ليس إلا خداعا"[١٩١].

وأما **العامل الثاني**، فيكمن في فطرة الشباب. إذ إن رغبات الشباب لا تعرف الشبع. ورغباتهم في حرية مطلقة لا قيد عليها. هذه الميول الغير المتوازنة تكون قريبة من الإلحاد. "فمثل هذه النفوس تقول: من أجل درهم من اللذة العاجلة فإني أتقبّل أطنانا من الألم في المستقبل، وهكذا يهيّئون عاقبتهم الأليمة، وينخدعون باللذة الموهومة التي يقدمها

[١٩١] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٢.

لهم الشيطان ويقفون في شرك الإلحاد مثلما تقع الفراشات التي تحوم حول النار"[١٩٢].

إن فتح الله في إطار نظرته إلى الشباب يقترب من نظرة الأستاذ بديع الزمان الذي ركز على القضية نفسها ووصف للشباب الدواء الذي يحميهم من هذه المزالق. لكن وصفة الأستاذ فتح الله تبدو أكثر أهمية، لأنها لم تقف عند حدود الوصف، بل تجاوزت ذلك إلى ممارسة العلاج. ويلمس ذلك كله من خلال منهج التربية الذي حرص الأستاذ على تطبيقه منذ أن كان مشرفا على مدرسة "كَسْتَانَة بَازَارِي" بإزْمير، حيث بدأت معالم بيوت الطلبة تتشكل وتتكون، إذ صارت هذه البيوت محضنا يفتح أبوابه للشباب ويرعاهم ويربطهم بالخالق. الأمر الذي وقاهم من الوقوع في براثين الكفر والإلحاد وغيرها من المخاطر التي تهدد الشباب في هذا العصر المفتون.

مسك الختام

وعلى العموم فإن أفكار الأستاذ في مجال العقيدة يمكن اعتبارها مدرسة جديرة بالدرس والاهتمام. يضاف إلى ذلك أن منهج تناول العقيدة منهج يعتمد على الإقناع بالحجة العقلية والتذكير الروحي. وفي هذا الإطار نلاحظ أنه مستوعب لكل ما كتبه علماء الكلام القدامى وغيرهم، فتراه يستحضر الكثير من الأفكار الخاصة التي تحتاج إلى كفاءة علمية دقيقة وإلى قدرة كبيرة على الفهم والاستيعاب. وما أروع تمييزه بين واجب الوجود وممكن الوجود حيث يعبر أن مسلك علماء الكلام يؤدي

[١٩٢] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٥.

obeikandl.com

إلى التوحيد، لكنه يستطرد موضحا أن هناك مسلكًا آخر أسهل وأقرب، حيث يقول: "والحقيقة أن علماء علم الكلام عندما حكموا عن طريق مفهوم "الدوْر والتسلسل" بنفي الأسباب وإسنادها إلى مسبب الأسباب أي إلى الله تعالى، ذكروا أن كل شيء "ممكن الوجود" وأن كل الأسباب والعلل تستند إلى "واجب الوجود"، ففتحوا بذلك منافذ إلى التوحيد. غير أن من الممكن الوصول إلى هذه النتيجة عن طريق أسلم. أجل! ففي كل أثر من آثار الخالق جل جلاله نرى ختمه وسكّته وآيته. لذا فليس هناك دليل واحد بل آلاف الأدلة على وجوده. فمنذ بدأت العلوم بمحاولة الكشف عن أسرار الكون، كان كل علم يشير بلسانه الخاص إلى وجوده ويعلن عنه بأجلى صيغة. وهناك كتب قيمة جدًّا كتبت في هذا الموضوع"[١٩٣].

[١٩٣] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٧.

openkandil.com